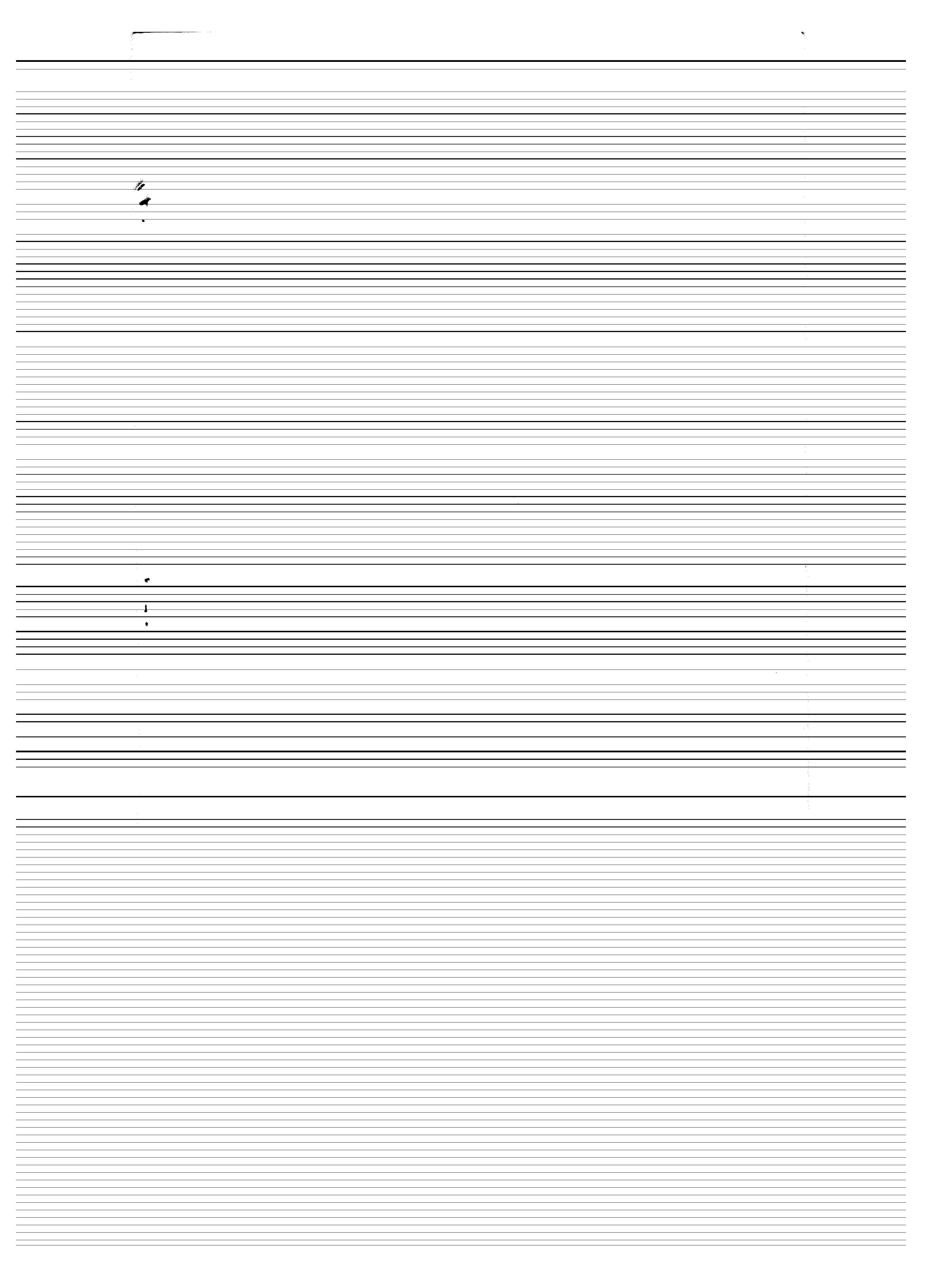
مذاهب وشخصيات

مصابيح على الطريق

بقلم
محمود الشرقاوى



مقدمة

هذه صفحات أعرض فيها صورا من حياة طائفة من الناس وفقهم الله إلى تحقيق الهدف الأسمى للإنسان من حياته ، وهو إسعاد الناس . وليس لى من وراء هذا العرض إلا غاية واحدة ، هى أن يعرف الناس أن امتياز إنسان على غيره من الناس فى خصلة من الخصال ، أو قدرته على القيام بأعمال كبار تشغل أذهان معاصريه ، أو تصديه لأنداده وخصومه ومغالبتهم طلباً للنصر — كل هذه الأمور لا تهيئ للإنسان مكانا بين العظماء أو الخالدين ، لأن العظمة الحقة هى خدمة الخير ، والبطولة الحقة هى تضحية الإنسان نفسه فى سبيل الناس ، والخلود الحق إنما يكون فى قلوب البشر .

إن الإنسان لا يحتاج إلى أن يكون موهوبا خارق الذكاء لكى يكون عظيما ، وإنما يكفى أن يكون إنساناً ذا قلب وضمير حى ، يشعر بأن الحياة لا تكون حياته إلا إذا أنفقت فى جهد متصل فى سبيل الخير والحق والحرية .

وموضوع هذا الكتاب مجموعة من التراجم تخيرت أصحابها من الذين صنعوا التاريخ . والتراجم بطبيعتها ، كما يقول كارليل ، أشمل الموضوعات نفعاً وأعمها لذة ، ومتعة للنفوس ، ولا سيما تراجم الممتازين الأفذاذ .

وإنى أضع بين أيدى شباب العرب هذه النماذج الرائعة من المثل العليا ، فى التضحية والإيمان والوطنية ، والتفانى فى الدفاع عن حق كل إنسان فى الحياة الحرة الكريمة .

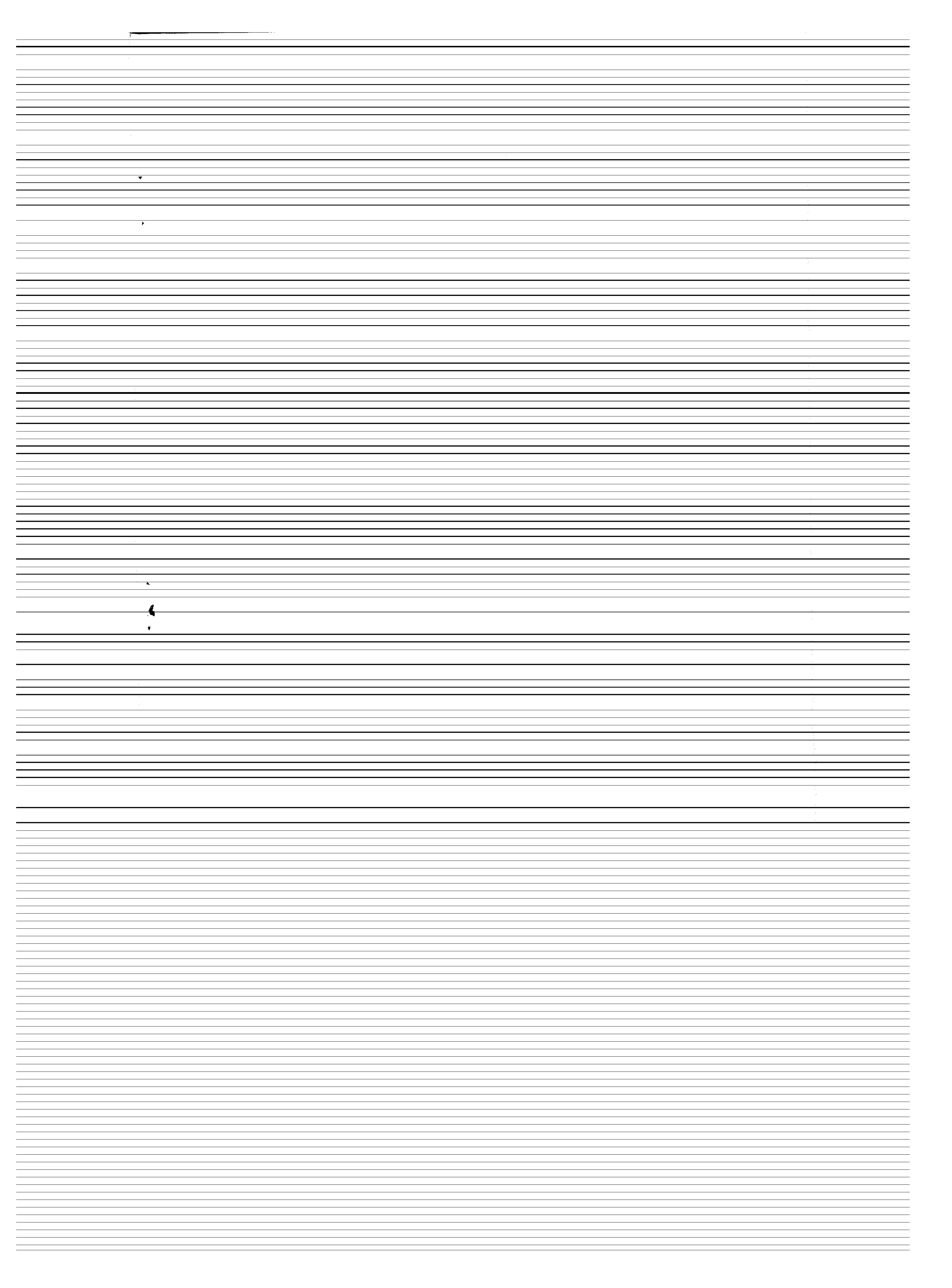
إن هؤلاء الأعلام الذين كانوا « مصابيح على الطريق » نادوا غفاة البشر — كما يقول عمر الخيام — وكان هدفهم إيقاظ الوعى الإنسانى فى النفوس ، وتنبيه الناس إلى الأخطار المحدقة بهم فى الداخل والخارج ، والذود عن كرامة الإنسان ، والانتصاف للمظلوم من الظالم للوصول إلى المثل العليا فى التضحية والبطولة والإنسانية وأداء الواجب .

إن هؤلاء الأعلام الذين كانوا « مصابيح على الطريق » طريق الإصلاح السياسى والاجتماعى والعلمى ، من حقهم علينا وقد بذلوا الكثير من ذوات أنفسهم لينيروا لنا الطريق لإقامة مجتمع إنسانى حر كريم ، أن نحيي سيرتهم ونجدد ذكرهم ونبين مبادئهم ، هذه المبادئ التى كانت لنا نورا يضئ حياتنا فى الحاضر والمستقبل .

ولتكن هذه الصفحات تحية وفاء لهؤلاء الأعلام الذين اتسمت حياتهم بالأريحية الإنسانية ، وتأرجت أفكارهم بالحب الكريم ، وأى حب فى الدنيا أنبل وأكرم من حب المثل الأعلى . . . .

محمود الشرقاوى

عَبدالعَزيز جَاويش



١

عبد العزيز جاويش . . هل تذكره ؟

إنه جزء من تاريخ كفاحنا المجيد . .

إنه واحد من رجال الطليعة المؤمنة بحق الشعب فى الحرية والحياة الكريمة.

إنه الرجل الذى ضحى بكل شىء لينال الشعب العربى فى مصر حقوق الإنسان الحر . .

* * *

كان الاحتلال البريطانى لمصر فى سنة ١٨٨٢ ، الكابوس الذى جثم على صدر الوطن ومنعه من التنفس فى حرية والحركة الطليقة ، والذى عطل نموه القومى ونشاطه الإنسانى فى سبيل التقدم والحرية والتطور البشرى المنشود .

وكان عبد العزيز جاويش فى أول عهد الاحتلال شابا مثل كل الشباب ، ولكنه كان وطنيا متطرفا ، مؤمناً بمصر وطنه العظيم ، كان يكره الاحتلال ورجاله فى أعماق قلبه . .

وبدأت الروح الوطنية تذكو فى قلوب الشباب ، وتدفعهم للعمل على إنقاذ مصر من براثن الاستعمار البريطانى ، وكان أن شكل الحزب الوطنى برئاسة مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ .

وقد اشترك عبد العزيز جاويش مع هؤلاء العاملين من أجل حرية واستقلال بلادهم ونفى من مصر قبل الحرب العالمية الأولى ، وشرد فى سبيل وطنه ، كما نفى محمد فريد وغيرهما من الأحرار ، ولما قامت الحرب حيل بين جاويش وبين العودة إلى بلاده باسم الأحكام العرفية ، كما حيل

بين محمد فريد وبين بلاده . . وكانت الحرب عبئاً ثقيلا على الشعب . .
فقد أخذت السلطات البريطانية فى مصر تجند الرجال ، وتستولى على
المؤن ، وتنهب كل مقدرات الشعب لتقديمها إلى الجيوش المحاربة .

وفى سنة ١٩١٩ قام الشعب بثورة هائلة ضد الاستعمار ، ولكن
الثورة قنعت بالحصول على تصريح بالاستقلال والحياة البرلمانية . وكان
جاويش قد عاد إلى أرض الوطن ليجاهد فى سبيله من جديد . وعمل
جاويش فى هذه الفترة مع العاملين فى وزارة المعارف ليقود نهضة التعليم
والثقافة فى مصر ، ويحيي روح النهضة والقومية والوطنية بإحياء مجد مصر
العلمى والثقافى التليد . .

٢

خلق جمال الدين الأفغانى ثورة فكرية فى الشرق العربى عامة وفى
مصر خاصة ، وكانت هذه الثورة تستهدف إحياء النهضة العربية ، وتحرير
الشعوب العربية من الحكام الظالمين والاستعمار . وكان الإمام محمد
عبده ، المصلح المجدد ، والداعى إلى نهضة الوطن وحريته ، قد قوى
الروح الدينية والاجتماعية والأدبية فى مصر ، ودعا إلى اقتباس النافع
المفيد من حضارة الغرب وثقافته ، واعتبر ماضى الأمة الإسلامية هو
الدعامة الأولى للحياة القومية والفكرية فى مصر والشرق . وقد شرح
آراءه فى مجموع من المقالات والأبحاث تعتبر فى أسلوبها ولغتها فتحاً
جديداً فى عالم الصحافة بما امتازت به من القوة وجزالة العبارة ، وهى
مزايا الأسلوب القديم ، ومن الدقة والمرونة ووضوح الشخصية مما هو أثر
لثقافته الحديثة . وبجانب محمد عبده كان رجال الثقافة يعملون لتعزيز النهضة

مثل عبد الله فكرى «١٨٣٤ — ١٨٩٠» وعلى مبارك «١٨٢٣ — ١٨٩٣»
وزيرى المعارف المشهورين .

وقد توالى إنشاء الجمعيات السياسية والعلمية والأدبية فى مصر ، وأعضاء هذه الجمعيات هم الذين قاموا بالدور الإيجابى فى الحركة الدستورية التى اقترنت بثورة عرابى ، ومن أبرزهم الزعيم الشاب مصطفى كامل «١٨٧٤ — ١٩٠٨» ومحمد فريد ١٩٢٠ ، وقاسم أمين «١٨٦٥ — ١٩٠٨» وأمين الرافعى « ١٨٨٦ — ١٩٢٧ » وسعد زغلول ١٩٢٧ وغيرهم .

وفى سنة ١٩٠٦ قامت مجموعة من الشباب تسعى إلى إحياء القومية العربية وتجديد ثقافتها القديمة ، فكانت هذه الحركة قبساً أنار الطريق لانتفاضات ثورية عربية ، وقد واجهت هذه اليقظة الحركة السياسية التى قامت بها الدولة العثمانية لتتريك العناصر غير التركية فى أمبراطوريتها ، وكان من نتيجة ذلك تبلور وطنية الشبيبة العربية .

وقد اجتمع فى القاهرة فى مطلع هذا القرن طبقة من الرجال نضجت فى شتى نواحى الإنتاج الفكرى ، ومنهم الكتاب واللغويون والعلماء والخطباء والشعراء .

وقد عاصر عبد العزيز جاويش هذه الثورة الفكرية والعلمية والأدبية وتأثر بها فى مشرقها ، وصاحبها فى نموها وازدهارها . ثم اشترك فيها مع العاملين ، وحمل عبء التجديد والبعث . . وقام بدور إيجابى فى حركة الإصلاح ، والإحياء والنهضة ، وأنتج وكتب وخطب . . وكان رسول الثقافة العربية فى أكسفورد ، وفى كل مكان سار فيه . .

٣

ولد عبد العزيز جاويش فى ٣١ من أكتوبر سنة ١٨٧٦ من أسرته المغربية بمدينة الاسكندرية، وبعد أن تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم طلب العلم فى جامع الشيخ هناك ، وفى سنة ١٨٩٢ وفد على الأزهر فطلب العلم فيه ، وأخذ عن كبار شيوخه كمحمد عبده وسواه ، ثم دخل دار العلوم ، واشتهر بين أقرانه بالجد فى الطلب ، والغيرة على الدين ، ونال إجازة دار العلوم بتفوق سنة ١٨٩٧ فتولى التدريس فى مدرسة الناصرية ، وقد عرف بين زملائه بسعة الاطلاع وعمق الثقافة وكرم الخُـلُـق ، وصفاء القلب ، وسعة الصدر ، وبالغيرة الدينية ، والحماسة الوطنية ، والإيمـان بحق مصر فى الحياة الحرة الكريمة .

وقد اختارته وزارة المعارف فى بعثة إلى جامعة « برودود » بانجلترا ، فدرس بها حتى أكمل دراسته ، وتعمق فى الإلمـام بالثقافة الإنجليزية وفهم أسرار حضارة الغرب ، وزودته هذه الثقافة الجديدة بزاد عقلى واسع ؛ وأمدته بخصائص فكرية ، وثقافية عميقة ، ظهر أثرها فى حياته وفى إنتاجه الأدبى والصحفى والعلمى .

وفى سنة ١٩٠١ عاد جاويش مفتشاً فى وزارة المعارف فظهرت مواهبه وعبقريته فى التفتيش وتوجيه الأساتذة وتدريبهم على أساليب التدريس الحديثة وطرقه ومناهجه ؛ وكان نبوغ عبد العزيز جاويش فى دراسته داعيا لوزارة المعارف إلى انتدابه أستاذاً للغة العربية بجامعة أكسفورد . وفى سنة ١٨٠٥ انتدب جاويش لحضور مؤتمر المستشرقين فى الجزائر ؛ وقام بنشاط كبير فى المؤتمر ورد على مستشرق ألمـانى طعن

فى القرآن الكريم ردا قويا ،وظل جاويش أستاذ اللغة العربية فى أكسفورد من سنة ١٩٠٤ إلى ١٩٠٦ .

وعاد سنة ١٩٠٦ وعين مفتشاً أول بوزارة المعارف واستمر إلى أن استقال فى ابريل سنة ١٩٠٨ ، وقد رأس تحرير جريدة «اللواء» فى ٢ مايو سنة ١٩٠٨ خلفا للزعيم مصطفى كامل وكتب جاويش فى سنة ١٩٠٨ كلمة جاء فيها :

« نحن لانرضى أن نقيم على الضيم . ثم لا نرضى بسلطان أجنبى علينا نحن لانقبل أن نباع بيع السلع فى الأسواق . نحن لانصبر على هذا العسف والجور . نحن لا نعرف للاحتلال بيننا صيغة تكسب المحتلين شيئا من النفوذ والسلطة والشرعية، إنه لابد لحل المسألة المصرية من أمرين أساسيين:

١ — إقامة حكومة نيابية دستورية .

٢ — أن يخرج الإنجليز من بلادنا .

وفى ٢٨ مايو سنة ١٩٠٥ نشر عبد العزيز جاويش مقالا فى « اللواء » بعنوان « دنشواى أخرى فى السودان » « ٧٠ مشنوقا و ١٣ سجيناً » وذلك لأن أهالى بلدة الكاملين بالسودان قاموا بثورة برياسة زعيم يدعى الشيخ عبد القادر . . فجردت عليه الحكومة قوة من الجيش نكلت بالثائرين . وقتلت عدداً كبيراً منهم وقدمت الباقين للمحاكمة فصدرت عليهم أحكام مختلفة ، منها الاعدام .

عدت الحكومة هذا النشر إهانة لوزارة الحربية . واتهمت الجريدة بأنها بالغت فى نشر الخـــبر . وقدم عبد العزيز جاويش إلى المحكمة فقضت ببراءته .

وفى ٢٨ يونيو ١٩٠٩ نشر عبد العزيز جاويش مقالا فى « اللواء »

بعنوان « ذكرى دنشواى » حمل فيه حملة شعواء على رئيس تلك المحكمة وأعضائها استهله بقوله . « سلام على أولئك الذين كانوا فى ديارهم آمنين مطمئنين . فنزل بهم جيش الشؤم والعدوان فأزعج نفوسهم وأحرق حصادهم . فلماهموا بصيانة أرزاقهم قيل إنهم مجرمون . وسيقوا فى السلاسل والأغلال ، فصلبوا على مرأى ومسمع من زوجاتهم وأمهاتهم وجيرانهم » .

ثم ندد بالقاضيين المصريين اللذين كانا من قضاة دنشواى : بطرس غالى رئيس المحكمة المخصوصة وأحمد فتحى زغلول أحد قضاتها ، فحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر ونفذ هذا الحكم فور صدوره . وقد قام كثير من الوطنيين الأحرار يدعون الشعب للاشتراك فى إقامة حفلة لجاويش عند خروجه من السجن يقدمون له فيها وساماً تقديرا لتضحيته فى سبيل أمته . وتم بسرعة جمع الاكتتابات وصنع الوسام ، وكان مؤلفاً من ثلاث قطع من الذهب . نقش على الأولى رسم الأهرام وكتب تحت النقش « تذكار الشعب إلى الشيخ جاويش اعترافا بوطنيته الصادقة » ونقش على الثانية الآية الكريمة « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » والثالثة هلال فى وسطه نجم . وقد نيطت هذه القطع الثلاث بوشاح من الحرير الأحمر والأبيض مرصعة كل واحدة منها بالأحجار الكريمة ترصيعا جميلا .

وفى ٢٧ من نوفمبر سنة ١٩٠٩ قدم له الشعب الوسام فى حفل خاص أقيم فى شبرد ، وعاد جاويش يحمل على صدره وسام الشعب .

واستقال جاويش من وظيفة مفتش أول اللغة العربية ليعمل رئيساً لتحرير اللواء . يقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « محمد فريد » : فى منتصف سنة ١٩٠٨ أختار الفقيد « محمد فريد » لرياسة تحرير « اللواء » المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش ، وكان قد تعرف به لأول مرة فى مؤتمر

المستشرقين بمدينة الجزائر سنة ١٩٠٥ ، وعرّفه بمصطفى كامل سنة ١٩٠٦ بباريس . فتمكنت بينهم أواصر الصداقة والميول الوطنية . فلما رأى أن اللواء فى حاجة إلى رئيس تحرير كفء لهذه المهمة عرضها على الشيخ عبدالعزيز جاويش وكان وقتئذ مفتشاً بوزارة المعارف ، فقبلها وبدأ يكتب فى « اللواء » يوم ٣ من مايو سنة ١٩٠٨ .

وللتاريخ نثبت أول مقال للشيخ فى « اللواء » لنعرف منه المعانى الكبيرة التى احتواها ، مما يعد من مفاخر جاويش ، وهذا نصه « اللواء فى ٣ من مايو عام ١٩٠٨ » :

« بعونك اللهم قد استدبرت حياة زادها الجبن وخور العزيمة ، ومطيتها الرهان والتلبيس ، فى أسواقها النافقة نشترى نفيسات النفوس بزيوف الفلوس ، وتباع الذمم والسرائر بالابتسام وهز الرءوس ، وبيمينك اللهم استقبل فاتحة الحياة الجديدة ، حياة الصراحة فى القول ، حياة الجهر بالرأى ، حياة الرشاد العام ، حياة الاستماتة فى سبيل الدفاع عن البلاد العزيزة ، أستقبل هذه الحياة بعد أن قضيت فى سابقتها ثمانى حجج بلغت فيها ذلك المنصب الذى كنت فيه ما بين محسود عليه ، ومرجوّ فيه ، أستقبل هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر منبرياً فى ميدانها ، فإما إلى الصدر ، وإما إلى القبر ، موقناً بما أعد الله لعباده العاملين المخلصين من الظفر والفتح المبين عارفاً أن :

الحىّ لا يموت إلا مرة والموت أحلى من حياة مرّة

وكيف لا نقدم من أنفسنا قرابين بين أيدى أهرام هذا القطر ونيله ، أم كيف لا نصرف كل مرتخص وغالٍ فى سبيل تحريره ، وقطع اليد الغاصبة له جزاء بما كسبت ، فلنتمسك بذلك المبدأ الشريف ما حيينا ،

ولنعتصم به ما بقينا ، ولنرفع أصـــواتنا حتى نطرق بها أبواب السماء ، فنستنزل المقت والسخط على من دخلوا بلادنا . وقبضوا بأيدى جبروتهم على نواصينا ، واستخدموا فى سبيل إصابة غرضهم أفراداً إذا ما لقوكم قالوا : إنا معكم وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين .

سيسير « اللواء » كما كان عليه ، خادما للأمة المصرية ، مجاهدا الإنجليز ما بقوا فى بلادنا ، حاثا على الفضيلة والأخلاق الكريمة ، داعياً إلى توحيد عناصر الأمة على اختلاف مللها ونحلها وتباين مشاربها ولهجاتها ، فاللهم أسألك عقلا ناطقاً بالصواب والحكمة ، وقلماً لا جولة له فى ميادين القحة ، ولا علم له بمعاهد الفحش والسباب ، فما أحوج الأمة إلى كلمة حق يستمعونها ، وجميل عظة يعونها ، وما أقمن الجرائد أن تتضامن وتتعاون على البر والتقوى ، وما أخلقها أن تجتمع حتى تكون يداً واحدة على أعدائها ، يحذرونها ويخشون بطشها ، وما أحراها أن تعلم أنها بتفرقها وتخاذلها إنما تشمت عدواً مبيناً ، وتكمد صديقاً شفيعاً ، فأرسل اللهم على قادة هذه الأمة ومرشديها من عندك روحاً يجمع شتيتها ، ويوحد كلمتها ويعصم أقدامها من الزلل ، وآراءها من الخطأ .. آمين » .

وظل جاويش يكتب فى « اللواء » المقالات السياسية التى تتدفق قوة وتلتهب حماسة ، حتى عدت عوادٍ فعطل اللواء وحل محله « العلم » ، فأخذ جاويش يقوم بأعباء رئاسة تحريره ، ويكتب المقالات البليغة فى الوطنية والاجتماع ، وكان قلمه وأقلام الكاتبين معه تتهاداها صحف تخرج بعضها تلو بعض ، وعليها اسم الحزب الوطنى . وفى فبراير سنة ١٩١٠ أصدر مجلة

« الهداية » لإفهام المسلمين أصول دينهم ، وجاهد لإنشاء المدارس الإعدادية والثانوية والليلية لتعليم اللغة الفرنسية للأزهريين .

كان جاويش يحب وطنه ويرى أن من حقه أن يتحرر تحرراً كاملا ، ولكن الإنجليز كانوا يأبون على المواطنين الأحرار أن يتنفسوا ، وأن يطالبوا بحقوق بلادهم ، فاضطهد جاويش اضطهاداً شديداً . وفى سنة ١٩١٠ قدّم إلى المحاكمة بسبب مقدمته التى قدم بها ديوان « وطنيتى » للأستاذ على الغاياتى وحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر .

وفى سنة ١٩١٢ قامت الحرب الطرابلسية فاشترك فيها جاويش بقلمه ودعا الأمة العربية إلى التطوع للدفاع عن طرابلس وحريتها ضد الاستعمار الإيطالى ، وهاجم المستعمرين بكل ما فيه من قوة وعزم وإصرار .. وفى نفس السنة (١٩١٢) أصدرت السلطات البريطانية أمراً بنفيه من مصر ، فاختار جاويش الآستانة منفى له وأرضا جديدة ينشر فيها دعوته ، ودعوة الحق والعدل والحرية ..

٤

وفى تركيا واصل جاويش كفاحه من أجل تحرير بلاده ، وعاش مما تدرّه عليه المجلات الإسلامية التى كان يصدرها هناك وهى مجلة « الهداية » و« الهلال العثمانى » ، « والحق يعلو » .

وكان الطلبة المصريون فى الآستانة يجتمعون بجاويش فيوجههم ويقدم إليهم نصائحه ، وكتبوا منشورا سياسيا إلى الشعب المصرى ، ليقوم بالثورة ضد الاستعمار البريطانى وأعوانه ، وكان زميلهم أحمد مختار فى طريق

عودته إلى أرض وطنه لقضاء إجازته السنوية فأرسلوا معه المنشور لتوزيعه على أفراد الشعب ، ولكن المنشور ضبط مع أحمد مختار أثناء تفتيشه فى جمرك الإسكندرية ، وقبضت عليه النيابة واتهمت عبد العزيز جاويش بالعمل والتحريض على قلب نظام الحكم فى مصر .

وأرسلت السلطات البريطانية فى مصر إلى كامل باشا ، رئيس وزراء تركيا يومئذ تطلب فيه تسليم جاويش إلى الحكومة المصرية لمحاكمته ، ووافق كامل باشا على طلب الإنجليز ووصل جاويش إلى الإسكندرية وأودع سجن محرم بك ، وبعد مرور أكثر من شهرين أفرجت عنه النيابة وأبعد عن مصر فذهب إلى تركيا .

وفى سنة ١٩١٤ أنشأ جاويش الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وأعاد إصلاح كلية صلاح الدين بالقدس وعهد إليه بإدارتها .

وفى ٢٧ يوليو ١٩١٤ أى قبل الحرب العالمية الأولى بأربعة أيام سافر جاويش إلى لندن مع الأميرال رءوف قائد المدرعة الحميدية التركية لتسلم باخرتين أوصت تركيا بصنعهما فى انجلترا ، وفى اليوم التالى « ٢٨ يوليو » أطلق طالب مصرى اسمه « مظهر » الرصاص على الخديوى عباس أثناء زيارته للآستانة وأصيب الخديوى فى وجهه ، واتهم الإنجليز عبد العزيز جاويش بتدبير الاعتداء على الخديوى ، وكان جاويش تحت الرقابة الشديدة فى لندن ، فخاف من القبض عليه ، فسافر إلى فرنسا ، وفى أول أغسطس سنة ١٩١٤ قامت الحرب العالمية الأولى ، فسافر جاويش من باريس إلى نابولى وواصل السفر إلى الآستانة وأخذ يعمل من جديد لخدمة بلاده ، وبدأ سعيه من أجل إعلان تركيا استقلال مصر ، وبفضل مساعى جاويش لدى الحكومة التركية اعترفت بحقوق مصر واستقلالها سنة ١٩١٧ .

وعندما قامت ثورة سنة ١٩١٩ فرح جاويش بها فرحا غامرا ، وفى ذلك يقول : « عندما علمت بخبر الثورة المصرية الكبرى التى لا أقدر أن أصفها إلا بأنها من روح الله سبحانه وتعالى قلت : يا سبحان الله ! صدق الله العظيم : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذّبوا جاءهم نصرنا » .

وفى ١٧ من أغسطس سنة ١٩٢٢ عين عبد العزيز جاويش رئيسا للجنة الشئون الثقافية الإسلامية فى تركيا ، وكان أثر جاويش الدينى والثقافى فى هذه الفترة أثرا جليلا ، فقد خدم الفكرة الإسلامية خدمات جليلة ، وأشار على الحكومة التركية بإنشاء جامعة إسلامية بالمدينة المنورة ، وألف عدة كتب منها « أذى الخمر ومضاره » وكتاب « إجابتى على الكنيسة الانجيليكية التركية » ، هذا فضلا عن مقالاته التى كانت تنشر فى أهم المجلات .

قد أرسل جاويش إلى الصحف المصرية كلمة يناشد المصريين فيها أن يساعدوه على العودة إلى وطنه ، ثم جاءت الانتخابات النيابية الأولى لأول برلمان مصرى بعد الاستقلال ; فرشح أصدقاء عبد العزيز جاويش الشيخ فى الإسكندرية نائبا فى مجلس النواب ، وطالبوا رئيس الوزراء بالتصريح له بالعودة ، واتصل الشيخ بالسفارة البريطانية فى تركيا لتمنحه تأشيرة الدخول إلى مصر ولكنها رفضت ، كما ماطل رئيس وزراء مصر فى البت فى هذا الأمر ، وفى ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٣ عاد جاويش إلى مصر متخفيا وأرسل إلى الصحف خطابه الذى أرسله إلى الحكومة المصرية ، وهو لا يزال فى اختفائه فنشرته جميعها ، وجاء فى هذا الخطاب :

« لشد ما وددت أن تسلك الحكومة المصرية فى معاملتى مسلك الكياسة فى السياسة ، فتذكر سابق جهادى فى سبيل بلادى ، وابتعادى

عن عزيز قومى وأولادى ، ثم تحترم ذلك المقام الذى أحرزته فى تركيا وغيرها من الممالك ، أرفع به ذكر مصر فى الأمصار وأحارب ما يدبره العداة الأشرار ، لجأت إلى الحكومة أستميحها الإذن فى العودة ، ثم جعلت أرقب ذلك الإذن زهاء أربعة شهور .

« لم أفعل ذلك لأن الإذن بعودتى ليس من المنح والأعطية التى تجود بها أيدى المحسنين ، فإن ذلك حق خوّله الدستور لكل مصرى ، فمن الخطأ أن تنكره علىّ حكومة دستورية ، ثم لم أقض تلك الشهور بالانتظار الممل ، لأن بيد الحكومة مفاتيح البر والبحر وطرائق السماء والأرض ، وأبواب الدلوج والخروج ، وسلالم الهبوط والعروج ، فلا تتحرك نسمة إلا بأمرها ولا تنتقل قدم إلا بعلمها فها أنذا اليوم بمصر بعد أن مللت الانتظار ، وأشهد على مسلكها المعوج سائر الأقطار استعنت القادر على كل شئ ، فقدمت حيث شئت ، ودخلت من حيث شئت ، وأقيم الآن حيث شئت ، فهل رأتنى عيونها الساهرة ، أو صدمتنى قوتها القاهرة على أنى لو شئت لأتيت من قبل ، ولكن أبى على أدبى أن آتى البيت إلا من بابه ، أو أدخله إلا بعد استفتاحه ، ولا أخالنى بعد الذى فعلت إلا مقدراً بنى وطنى الأعزة » .

إلى أن يقول : « إننى ذلك الجندى الذى يحيى بلاده بموته أو يسعدها بشقائه ويديمها بفنائه ، وما أنا بالذى لا يشتغل إلا نائباً ، ولا يعيش إلا رئيساً ، فلتكن نتيجة الانتخابات ماشاءت الأقدار ؛ فإننى لا أنفك قائماً على العهد الذى قطعته على نفسى ، أمام الله ، وأمام وطنى ، أن أجاهد فى سبيل بلادى إلى آخر أنفاسى ، ولا أطيع فى سلامتها والدفاع عن كامل حقوقها ، سوى حبها الذى ملأ قلبى وأمرها الذى هو من أمر الله . . . »

وفى سنة ١٩٢٥ عين مراقباً عاماً للتعليم الأولى بوزارة المعارف

العمومية وقام بعدة إصلاحات وخطا التعليم الأولى فى عهده خطوات واسعة . . بيد أن الشيخ لم يلبث حتى أدركته علة القلب فما وهى . ولكنه ظل على نشاطه وجهاده فى سبيل أمته ، حتى توفى فى ٢٥ يناير سنة ١٩٢٩ .

٥

وكانت أخلاق عبد العزيز جاويش نسيج وحدها طيباً وكمالا ، ما رضى ولا غضب لنفسه ، وإنما كان غضبه ورضاؤه لوطنه وأمته ، وكان كريم اليد حتى فى اشتداد المحنة عليه محتفظاً بكرامته لا يرى فوقها كرامة ، وكان أميل إلى حياة الزهد بقناعة ، عطوف القلب رقيقه موطأ الأكناف لأصدقائه ، صلباً فى الحق على خصمه ، لا يضن بجاهه ولا علمه ولا مشورته على مستنصح أو مستفيد[1] .

٦

وقد ألف عبد العزيز جاويش فى أول عهده بالتعليم كتابين لا يزالان فى بابهما أحسن مرجعين ، وهما « غنية المؤدبين » و « مرشد المترجم » .

أما كتاب « غنية المؤدبين » فقد أوضح الدافع إلى تأليفه فى مقدمته بقـــوله :

« وبعد ، فلما كانت اللغة العربية لم يوضع فيها للتربية وأساليبها شىء على النسق الحديث وقد اشتدت حاجة المؤدبين فى هذا الزمن إلى كتاب

---

(١) جريدة الأهرام عدد ٢٦ يناير سنة ١٩٢٩ .

يهتدون به فى هذا الفن ، أردت إجابة لمطالب هذه الحاجة الشديدة أن أضع عجالة صغيرة تكون بحول الله مرجعا لمدرسى فن التربية وجمعت فى هذه العجالة ما تدعو الحاجة إليه فى تعليم الناشئة » :

وليس من شك فى أن جاويش بهذا الكتاب التربوى يكون أسبق من عالجوا أمراض حرفة التعليم فى وقته ، بما وضع فى كتابه هذا من أساليب جديدة هى أساليب طريقة الاستنتاج بالمحاورة وهى أقوم الطرق فى تسهيل التعليم وتيسيره على الناشئين .

يقول جاويش فى باب إرشاد المدرسين :

« أن يكون المعلمون فى سيرهم وأخلاقهم مثالا حسناً من جميع الوجوه لتلاميذهم ولمن جاورهم من الناس ، وعليهم ألا يقتصروا على تعليم تلامذتهم المواد المقررة فى فهرس مواد التعليم ، بل يجتهدوا فى توطيدهم المحافظة على الأوقات وعلى الجد والطاعة والتأمل فى الأمور والفروق فى المعاملة والشفقة بالناس .

والكتاب الثانى « مرشد المترجم » وقد ألفه لخريجى مدرستى المعلمين العليا والوسطى وهم الذين يقصر عليهم تعليم الترجمة .

كما ألف جاويش كتاب « الإسلام دين الفطرة » والكتاب كله فلسفة علمية تكشف عن وجوه كثيرة من مرامى الدين الإسلامى التى يتم بها إصلاح العقيدة ومعرفة مرامى الإصلاح من أسرار هذا الدين .

يقول جاويش فى مقدمة الكتاب : زارنى ذات يوم وأنا فى أكسفورد فى بلاد انجلترا لفيف من نجباء طلبة العلم فى كليتها الجامعة ، فما كاد يستوى بهم المجلس حتى أخذنا نتحادث فى أمر الشرق والشرقيين ، وما لهم من الأخلاق والعادات والأحوال التى تباين فى كثير من الوجوه ما عليه

أهل أوربا ، حتى أفضى بنا المقام إلى الكلام فى الإسلام ، فوجدت من خلال حديث القوم أنهم لا يكادون يفقهون للإسلام معنى ، سوى أنه دين الاسترقاق والطلاق وتعدد الزوجات ، وأن المسلمين يعبدون محمداً كما يعبد النصارى المسيح ابن مريم ، وما زادونى فيهم بصيرة ، فلطالما قابلت من أمثالهم على مبلغ علم معظم القوم بهذا الدين الحنيف ، فأخذت إذ ذاك أبين لأولئك الأفاضل ، أصول الدين الإسلامى وقواعده وحكم بعض تكاليفه ، فكنت أرى القوم يتدبرون ما أقص عليهم ، من غير أن يستهوى نفوسهم تعصب ، ولا يعمى قلوبهم عناد أو جحود ، بل نبذوا وراء ظهرهم جميع ما كانوا يلقنونه منذ المهد من النقائص التى مثلت لهم الإسلام فى أبشع صوره وأقبحها ، ولم يكد ينتهى بنا الحديث ، حتى انطلق أحدهم قائلا : « يخيل إلىّ أيها الشيخ أن هذا الدين لا ينافى الفطرة فى شىء ، فأجبته إذ ذاك بما تذكرته من قوله عليه السلام : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا تجدعونها » وترجمت لهم ذلك الحديث الشريف .

والذى يفهم من الحديث أن التهويد أو التنصير صفة تطرأ على الإنسان بكسب أبويه كالجوع الذى يصيب الشاة بعد أن تولد على الفطرة سليمة لا عيب فيها .

ويدل على ذلك ما نص عليه الشرع الإسلامى من عدم تكليف القاصرين وألا يؤاخذوا بما فعل آباؤهم من التهويد والتنصير ، حتى يبلغوا راشدين راضين بدين آبائهم فيؤاخذوا إذ ذاك وقد ألقيت على كواهلهم أعباء التكليف بما كسبت أيديهم .

إلى أن قال : فإنا نريد أن نذكر لك كون الإسلام دين الفطرة ، وأنه لو ترك الطفل وشأنه حتى كبر غير مهوَّد ولا منصَّر لما اختار بفطرته إلا الإسلام ، ولا يمكن توضيح ذلك إلا بالبحث فى بعض أصول الإسلام وقواعده والأغراض التى يرمى إليها الشارع فى تكاليفه . والكتاب يتضمن الموضوعات التالية :

القسم الأول : الفطرة والتوحيد ، والنبوة والغرض الفطرى منها ، والقرآن والفطرة البشرية ، ودعاء نصف شعبان ، وأعداء القرآن ، وهل أسس الإسلام على السيف ، وأسباب الغزوات ودعوة النبى (ص) عامة لجميع المكلفين . والإسلام صالح لكل زمان . وأصول الإسلام والتوكل غير التقاعد ، وصفات المؤمنين ، والرق فى الإسلام والمرأة فى نظر الإسلام والمساواة ، وزوجات النبى ، وزواج النبى بامرأة زيد ، والطلاق ، وتعدد الزوجات . .

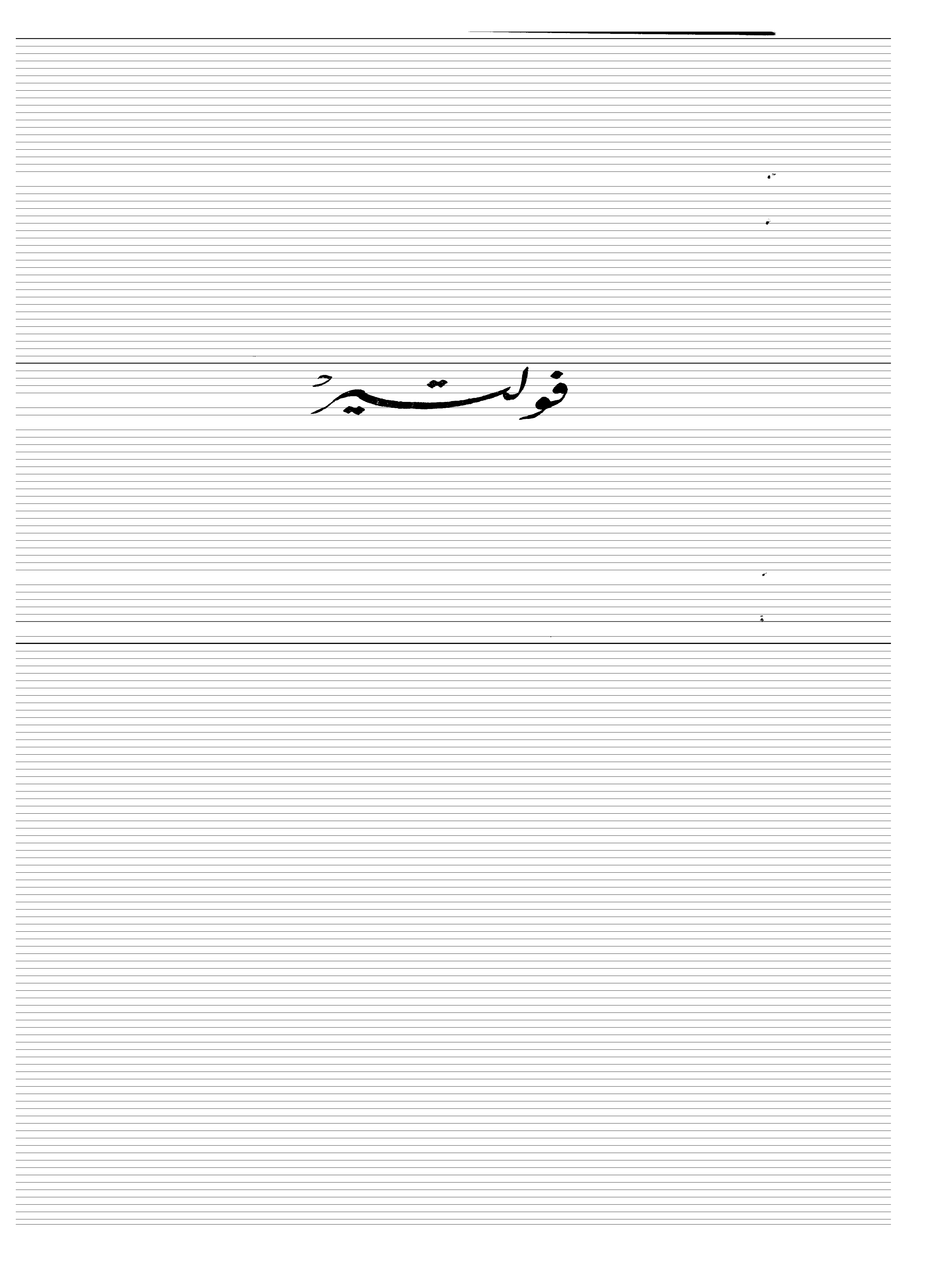
القسم الثانى : أثر القرآن فى تحرير الفكر البشرى . ويتضمن الموضوعات التالية : حرية الفكر قبل الإسلام وعهد التحرير العقلى والحرية فى الشرق الأقصى ، والقرآن والحرية ، والقرآن يخاطب العقول وموقف القرآن الكريم إزاء المعجزات ولا إكراه فى الدين وأهل الردة والزنادقة وجمود المتصدين للفتوى ومقام القرآن الكريم إزاء العلوم والمعارف الكونية وعهد البحث والنظر والقرآن والعلوم الحديثة .

وكانت هذه الموضوعات التى عالجها جاويش فى كتابه جديدة على من تحدثوا عن الدين الإسلامى فى هذا العهد وقد قدم جاويش هذا الكتاب إلى مؤتمر المستشرقين فى مدينة الجزائر لما دعته الحكومة المصرية وهو فى انجلترا ليمثلها فى هذا المؤتمر سنة ١٩٠٥ .

وكان أسلوب جاويش فى كتاباته قويا جزلا سهلا ، ولفظه شريف ، يترسم فيه أسلوب نهج البلاغة ، وقد يعمد إلى السجع فيجىء به فى براعة وإحسان .

وبعد ، فهذه صفحات قليلة من حياة هذا الرجل العظيم عبد العزيز جاويش ، صفحات تذكرنا بالإيمان العميق ، والوطنية الصادقة ، وحب الإصلاح والدعوة إليه والجهاد فى سبيل تحرير الوطن بكل ما يملك الإنسان من قوة وعزم وإصرار .




فولتير



١

«فولتير» الفيلسوف الساخر الذى قاد الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ بعد وفاته بعشر سنوات ، ونذر فكره وروحه ولسانه وقلمه للقضاء على الإقطاع والحكم المستبد والرشوة والانتهازية ، ورفض أن يهادن أعداءه الكبار رغم السجن والتشريد ..

اسمه فرنسوا مارى أوديه ، ولد فى باريس سنة ١٦٩٤ ، واشتهر فى دنيا الأدب والحرية باسم « فولتير » ، واشتغل أبوه بالمحاماة فنشأ فى بيئة ناعمة تلتف بالمخمل الأحمر ، الذى أخذ لونه القانى من دماء الفلاحين ، والرجال فى تلك البيئة ينافسون النساء فى الميوعة والتخنث . وانطبع عصره بالانحطاط الخلقى فى قصور زعماء الإقطاع .

ولم يشأ « فولتير » أن يكون مثلهم ، يحيا على هامش الحياة كأولئك الفاسدين المفسدين ، وأبى أن ينساق فى موكب الانحناءات والإيماءات الماجنة أو مصاصى الدماء ، فما كاد يبلغ أشده حتى أعلنها حربا على رأس الفساد على الملك ، ودخل ميدان الأدب برواية سخر فيها منه ، وهزأ به وأفرغ فى شخصه كل آلام مواطنيه الفقراء .

وثارت ثائرة الملك فانحنى أمام ثورته أفراد حاشيته ، ودخل «فولتير» سجن الباستيل وأمضى فى ظلماته أحد عشر شهراً ، ذاق فيها العذاب ألوانا ، وظن لويس أن الشاب ارتد إلى عقله ، فرجع إلى حظيرة المجون والفساد ، ولكن سرعان ما خاب ظن الجميع فما إن غادر فولتير سجنه حتى كتب رواية أخرى عن « الشفالييه دى دوهان » أحد رجال البلاط الفرنسى ، ندد فيها به ، ولم يدخر وسعاً فى فضح أعماله وتصرفاته الدنيئة .

وأدرك الملك أن الرواية الجديدة هى فى الحقيقة لطمة موجهة له بطريق غير مباشر ، فأصدر أمره بنفى فولتير من البلاد ، وتحريم دخوله فرنسا . واختار فولتير انجلترا المنفاه وظن أنه يستطيع أن يستنشق فيها عبير الحرية ، ولكنه صدم هناك بما لم يكن فى الحسبان ، إذ وجد حفنة من الإقطاعيين تتحكم فى البلاد ، وتطبق فيها شريعة العصور الوسطى . فما استقر به المقام بينهم ، حتى شعر بأنفاسه تضيق ، وروحه تختنق ، فصارح الإنجليز برأيه حتى لا يموت كمدا . .

وفوجىء الإنجليز ذات يوم بفولتير وهو يضع عنهم كتابا عنوانه « رسائل فلسفية عن الإنجليز » وقامت ضجة بين الإقطاعيين الذين حملوا عليه وطالبوا بطرده من البلاد .

وتشفع بعضهم لدى الملك لويس ، ليتغاضى عن عودة فولتير إلى فرنسا ، فقبل الملك أملاً أن يثوب الشاب إلى رشده وسمح له بالعودة إلى وطنه .

وفى فرنسا ركن فولتير إلى الهدوء قليلا ، ثم عاودته الثورة ، فكتب كتابا عنوانه « مذكرات سرية عن بلاد الفرس » بعث به إلى هولندا ، فطبع هناك غفلا من اسمه وأورد فيه قصصاً أراد بها النيل من حاشية بلاط الملك لويس الرابع عشر ، دون أن يعين الأسماء أو الأماكن التى دارت فيها الوقائع فأسندها إلى بلاد الشرق ، واختار لها أبطالا من فارس وملوكها ، ومنها قصة « الشاه عباس » التى قصد بها لويس الرابع عشر وقال فيها إنه رزق طفلا من السفاح اسمه « جعفر » وهو فى الحقيقة « الكونت دى فيرماندوا » الذى ولد ابنا غير شرعى للويس ، ثم قال : إن جعفرا التقى بولىّ العهد الشرعى فلطمه على وجهه واضطر الشاه إلى أن يسجنه مدى الحياة فى قلعة الباستيل ، بعد أن وضع على وجهه قناعا

من الحديد حتى لا يعرفه أحد ، ولقيت القصة نجاحا رائعاً خصوصا أن الملك أمر بسجن « الكونت دى فيرماندوا » ابنه فى السفاح من عشيقته « لا فاليير » فى سجن « سانت مارجريت » وأذيع أنه هو الرجل ذو القناع الحديدى ، الذى اشتهر فى تاريخ فرنسا خلال تلك الحقبة .

ولم يكتف فولتير بهذا ، بل أصدر كتابا آخر باسم « تاريخ لويس الرابع عشر » تناول فيه قصة « ذو القناع الحديدى » وأكد أنه ابن لويس الرابع عشر ، وأنه نقل من السجن الأول إلى سجن الباستيل حيث توفى سنة ١٧٠٣ ودفن فى مقبرة القديس بولس .

ونجح فولتير فى إثارة الشعب ضد مفاسد الملك حتى اشتهر بلقب « عدو الملوك والملكية » ، وعرف كيف يسدد السهم القاتل إلى صدور الجالسين على عرش فرنسا . وكاد لويس الرابع عشر يعصف بفولتير ، لولا أن نصحه أصدقاؤه بالفرار من وجه الملك ، وأقنعوه أنه لا جدوى من الشجاعة بالبقاء فى وجه الطاغية ، فسافر إلى ألمانيا ، وأمضى فيها ردحا من الزمن ، ولكنه أمسك يراعه ، وانتقد فردريك الأكبر ورجاله فطردوه من البلاد .

واستقر به المقام سنة ١٧٥٥ فى قرية « فرنى » على حدود سويسرا فسكن هناك قصرا أمضى فيه ٢٣ عاماً حتى آخر أيامه ، فأطلق السكان عليه اسم « الناسك » وقد حفلت تلك السنوات بأروع ما أنتجه قلمه فى الفكر والفلسفة . .

واحتل فولتير عرش الفلسفة فى أوربا ، وتزعم عصر التنوير ، وقال إنه يؤثر أن يشقى بالحكمة على أن ينعم بالجهالة والسذاجة ، وأنه لا يتردد فى أن يعالج نواحى الحياة أقواها وأعمقها ، حتى ولو حدث ذلك على حساب ما يقاسيه من ألم .

وقد وصفه معاصروه بأنه كتلة عقل مجردة عما يسمونه القلب ، ولم يكن فى حياته من النساء غير اثنتين هما « جابر أميل » زوجة المركيز « دى شاتليه لومون » و « مارى فرنسواز مرشان » وكانت « جابريل » مثقفة فعلا ، قرأت كتب الأدب اللاتينى لعمالقته من أمثال فرجيل ولوكريتوس وغيرهما ، وأولعت بالعلوم الرياضية والتمثيل والموسيقى وعلمها فولتير اللغتين الإنجليزية والإيطالية ، ولكنها أرادت أكثر من هذا العلم والتلقين وأرادت قلب فولتير لاعلمه . فضاق بها الفيلسوف الثائر وانفصل عنها بعد أربع سنوات . .

أما مارى فرنسواز مرشان « الممثلة فى فرقة الكوميدى فقد قامت بتمثيل رواية فولتير الخالدة « ميروبا » التى بلغ بها قمة المجد الفنى . فتألقت فيها وصادفت نجاحا لم تصل إليه نجوم الكوميدى فرانسيز من قبل ، كما قامت ببطولة رواية « سميراميس » .

وكتب فولتير عنها يقول : « إن سميراميس وميروبا ليستا من صنعى أنا ، بل هما من أمجاد الفنانة مارى فرنسواز » .

وقامت العلاقة بين فولتير شيخ الخمسين وبين الممثلة الشابة مارى . من نوع الحب العذرى . واستطاب فولتير الجلوس معها . والتحدث إليها عن مشروعاته الأدبية . وتحدثت هى إليه عن آمالها الفنية . وقد وصفها الناس بقولهم إنها « ناسكة احبت ناسكا » .

واعتزلت مارى دنيا الفن سنة ١٧٧٦ . وسافرت إلى « بولون » على شاطىء البحر . بعد أن تألقت على المسرح أربعين عاما . وأقامت فى بيت اشترته من مالها الخاص وعاشت فيه وحيدة على أمجاد حبها الكبير لفولتير ، وعلى ذكريات التصفيق وطاقات الأزهار من المعجبين . حتى وافاها ملاك الموت . فسحبت سرها معها إلى العالم الآخر ، تاركة وراءها علامة استفهام مميزة . لماذا انفصلت عن فولتير ؟ » .

وفى ٣٠ مايو سنة ١٧٧٨ . مات فولتير . وبعد حوالى عشر سنوات أى فى سنة ١٧٨٩ قامت الثورة الفرنسية . وأعدم الملك لويس السادس عشر . وهتف الثوار فى الشوارع بتعاليم فولتير . ودارت كلماته على أفواه زعماء الثورة . وقادة الشعب يستعينون بها لاستعداء الجماهير على الملكية الفرنسية ونجحت الثورة . وكان قائدها هو فولتير .

كتب عنه الفيلسوف السياسى « جون مولى » يقول :

« لقد كان فولتير . هو صاحب اللهب المقدس . الذى أشعل نار الثورة الفرنسية وغذاها بوقود من فكره ولو أنه لم يعش حتى يجنى ثمارها التى أينعت على غصون شجرة الحرية » .

٢

كان فولتير أبلغ كتّاب فرنسا وأبعدهم صيتاً . ألهب بكتاباته البليغة عواطف الجماهير . ولذلك كان له أثر عميق فى رجال عصر الثورة . وقد سما فى كتاباته بالنثر الفرنسى إلى غاية الكمال ، وهذا هو سر عظمته وخلود اسمه حتى عرف « بالملك فولتير » . وقد استطاع بفضل حملاته القلمية الرائعة أن يسيطر على آفاق الآداب فى أوربا .

ولا يعد فولتير فيلسوفا سياسياً . فلم يكتب كتابة نظرية علمية ولم يعالج نظريات فلسفية يمكن دراستها كوحدة . ولكننا نعثر فى ثنايا بحوثه على عبارات ونصوص تشهد بميوله السياسية . ونزعاته الإصلاحية ، هذا إلى أن فولتير لم يكن فيلسوفا « أصيلا » فيما عالجه من بحث . إنما كان تلميذا لكثير من الأساتذة السابقين عليه . غير أنه كان تلميذا مستقلا ، أقوى من أساتذته من بعض الوجوه [1] .

---

(١) الدكتور مصطفى الخشاب : تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية ص ٧٣١

وترك فولتير بحوثا كثيرة أشهرها : بحث فى أخلاق الشعوب . وآراء جمهورية وتعليق على روح القوانين لمنتسكيو . ورسائل فلسفية بحثت فى فلسفة التاريخ . ورسالة فى التسامح والغموض وقاموس فلسفى .

وقد درج فولتير فى كتاباته على طريقة التهكم والسخرية ، كان يكثر من المداعبات اللاذعة والنكات التى تنطوى على التفكه المر ، وكان بحق زعيم مدرسة فكرية ثورية . .

وتنطوى كل كتابات فولتير على فكرة أساسية هى تحقيق الحرية بالمظهر المدنى والسياسى لارتباط هذين المظهرين ارتباطا وثيقاً .

وندد فولتير بنظرية « التفويض الإلهى » وهى النظرية التى بمقتضاها يعتقد الملك المستبد أنه يستمد سلطته من الله مباشرة . وأن العناية الإلهية أقامته بديلا عنها فى رعاية أمور العباد . ومن ثم فله الحق فى أن يحكم حكما مطلقاً . وندد فولتير بهذه النظرية ودعا إلى تقييد سلطة الملك بقيام برلمان حقيقى يعبر عن سيادة الشعب وتتركز فى أعضائه سلطة الأمة .

وكان فولتير يقول : إن الحرية فى الرجل صحة النفس » ويتمنى فى مؤلفاته وجود حكومة قوية مستنيرة خاضعة للقوانين تعمل لصالح مجموع الشعب ، وتسوى وتعدل بين الرعية فى الضرائب والقضاء والتجارة ، وتحترم الحرية الشخصية وحرية الرأى وتعين البؤساء .

يقول فولتير : « لماذا نترك فريسة للاحتقار والحطة والظلم والنهب ، ذلك العدد الكبير من الرجال الكادحين الأبرياء الذين يعملون فى الأرض طوال العام لكى يطعموك ثمارها ، وعلى العكس من ذلك نحترم ونرعى ونتملق الرجل المتبطل ، بل الشرير الذى لا يعيش إلا من ثمرة كدهم ولا يغتنى إلا من بؤسهم . »

وكان فولتير من ألد أعداء الكنيسة والتعصب الديني يقول في كتابه « قبر التعصب » .

«إن من يتلقن دينه بلا فحص يكون كالثور يتقبل النير بلا معارضة »

ويقول في خطاب لولي عهد بروسيا :

«إن الدجاجلة هم وحدهم الذين يجزمون ويقطعون ، فاننا لانعرف شيئا عن المبادىء الأولى ، فمن الشطط أن نعين ماهية الله أو الملائكة أو العقول وأن نعرف بدقة علة خلق الله للعالم ، في حين أننا لانعرف لماذا نرفع ذراعنا كلما شئنا وليس الشك مما يرتاح له المرء ،ولكن التعيين مدعاة الضحك والسخرية » .

ويقول في كتابه « التسامح » :

« لا يحتاج المرء إلى براعة فائقة أو فصاحة نادرة لكي يبرهن على لزوم التسامح بين المسيحيين ، بل بين جميع الناس على السواء . وقد تسألني الآن : هل يجب عليّ أن أعتبر التركي أو الصيني أو اليهودي أخاً لي ؟ أقول: أجل أليس كلنا أبناء أب واحد وخلائق رب واحد ؟ . .

« وقد تقول هؤلاء الناس يحتقروننا ويعتقدون أننا وثنيون ،فأقول : إذا كان الأمر كذلك فإني أخطئهم ، وأظن أني أدهش المسلم أو البوذي وأكسر من شرة عنادهما إذا قلت لهما ما يلي :

« هذه الكرة التي نعيش عليها ليست سوى نقطة تسير في الفضاء مثل سائر الكواكب العديدة الأخرى ، والإنسان الذي يبلغ طوله خمس أقدام إنما هو شيء حقير في هذا الكون وهناك في جنوب أفريقيا أوآسيا إنسان لا يكاد يرى يقف ويقول للناس:اسمعوا إن خالق هذه العوالم قد أوحى إليّ ، فعلى هذه الأرض نحو ٩٠٠ نملة صغيرة مثلي ولكن ليس

عزيز عند الله سوى جحرى ، أما سائر الأجحار فالله يكرهها ولن يكون بينها سعيد سوى جحرى .

وعندئذ يسألوننى من هو هذا الأبله الذى نطق بهذا الهراء ؟ فأقول لهم إنهم هم أنفسهم يقولون ذلك ثم أهدىء غضبهم » .

« ويقول أيضاً :

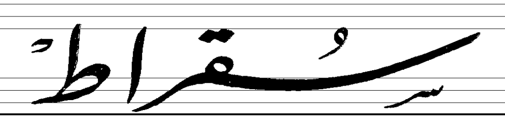
« لكى تدعى حكومة ما الحق فى أن تعاقب الناس على أغلاطهم يجب أن تتخذ هذه الأغلاط هيئة الجرائم ، وهى لن تكن جرائم حتى تحدث القلاقل بين الهيئة الاجتماعية ، وذلك بأن تؤدى إلى التعصب وعلى ذلك يجب على الناس أن يتجنبوا التعصب لكى يستحقوا التسامح » .

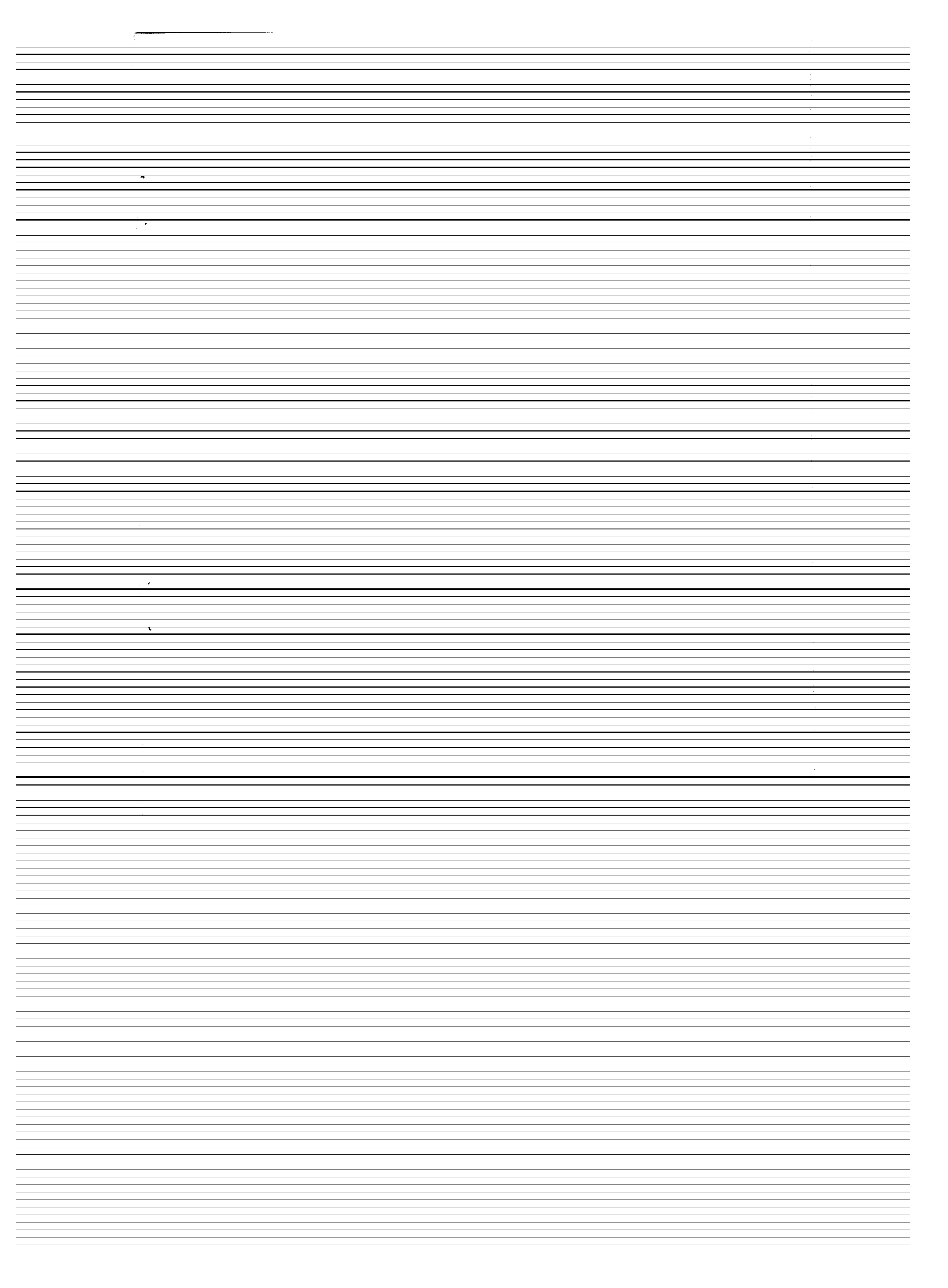
ويستدل على ميول فولتير الجمهورية من قوله فى كتابه «قاموس فلسفى» « إن اختراع مهاجمة الجار أو سلبه والفتك به ، يمكن أن يعد أساسا للحكم الملكى : إن الرجال يولدون متساوين ، والأسياد الأول وجدوا بفضل الشدة والمكر »

ثم يقول : « أيهما أصلح ، أن يكون وطنك مملكة أم جمهورية ؟ إذا رجعتم إلى الأغنياء تسألونهم عن رأيهم فإنهم يفضلون الارستقراطية ، وإذا استفتيتم الشعب فإنه يريد الديمقراطية ، ولا يوجد من يفضلون الملكية غير الملوك ، ولا توجد حكومة كاملة ، ولكن أحبها بغير شك هى الحكومة الجمهورية لأنها تقرب الرجال من المساواة الطبيعية . . . » .

وحدث أنه وقع على خيانة اثنين فى منزله ونزل كلاهما على الأرض يركعان له حتى يغفر لهما هذا الذنب وهما يرتجفان من العقاب ، فركع فولتير فى الحال على الأرض أمامهما وعيناه تفيضان بالدموع وهو يقول لهما ألا يركعا إلا لله وحده . .

. . . إنه يمثل هذا الرجل يتطور الناس . . .


سُقراط



سقراط .. واحد من الرجال الذين دخلوا التاريخ من أرحب الأبواب لم يدخل التاريخ لأنه ملك أو حاكم فرض نفسه على المؤرخين ليزوّروا له صفحات من التاريخ ، ولكنه واحد من القلة الضئيلة ، الممتازة من الرجال أصحاب الرسالات الخالدة على مر الأيام ..

كان أبوه مثّالاً . ينحت التماثيل ، أما أمه فكانت قابلة ، ومن الفكاهات التي كان ينطق بها عن نفسه أنه لم يفعل أكثر من مواصلة حرفة أمه ، ولكنه نقلها إلى دائرة الأفكار فكان يساعد غيره على أن يخرجوا للعالم آراءهم .

وكان سقراط يقنع بثوب بسيط رث يلبسه طوال السنة ، ويفضل الحفاء على الأحذية ، وقد تحرر إلى حد كبير من داء التملك ، ويقال إنه رأى ذات يوم بضائع مكدسة للبيع فقال : ما أكثر الأشياء التي لا أحتاجها ..

وكان يشعر بأنه غني في فقره ، وكان مضرب الأمثال في الاعتدال وضبط النفس ، بيد أنه كان أبعد الناس عن حياة القديسين ، ولم تكن تفارقه دعابته ورقة حاشيته ، ولذلك فإن الذين يطبقون آراءه السياسية يجدون من السهل عليهم أن يحتملوا أخلاقه ، ولما قضى نحبه قال عنه إكسانوفون : إنه بلغ من إنصافه أنه لم يظلم إنساناً حتى في أتفه الأمور ، وبلغ من عدالته أنه لم يفضل في وقت من الأوقات اللذة عن الفضيلة ، وبلغ من حكمته أنه لم يخطىء قط في تمييز الخبيث من الطيب ، ومن قدرته على تبين أخلاق الناس ومن حضهم على اتباع سبيل الفضيلة والشرف أنه بلغ أحسن ما يأمله أحسن الناس وأسعدهم ، وقد عبر أفلاطون عن

هذا المعنى ببساطة خلابة فقال إنه : « كان بحق أعقل وأعدل ، وأحسن من عرفت من الناس فى حياتى كلها[1] » .

وقد عمد سقراط إلى دراسة الفلسفة وأعجب وقتاً ما بالسفسطائيين الذين غزوا أثينا فى أيام شبابه ، وأكبر الظن أنه عرف انكساغورس بشخصه إن لم يكن عن طريق مبادئه ، وذلك لأن أركاوس الملطى تلميذ انكساغورس كان فى وقت ما أستاذاً لسقراط ، وكان أركلوس هذا قد بدأ حياته العلمية عالماً فى الطبيعة ثم اختتمها بأن كان دارساً لعلم الأخلاق ، وقد فسر أصل هذا العلم وأساسه على قواعد العقل ، ولعله هو الذى حول سقراط من دراسة الطبيعة إلى علم الأخلاق ، ومن هذه الطرق كلها وصل سقراط إلى الفلسفة ، وقد تم له ذلك وجد « الخير أعظم الخير فى حديثى كل يوم عن الفضيلة ، وفرحى عن نفسى وعن غيرى ، لأن الحياة التى لا يفحص عنها غير خليقة بالرجال » .

وهكذا أخذ يطوف بمعتقدات الناس ، يخزهم بالأسئلة ، ويطلب إليهم إجابات واضحة دقيقة ، وآراء منطقية ، ويلقى الرعب فى قلب كل من لا يستطيع أن يتحدث حديثاً واضحا . .

وقد حمى نفسه من التعرض لأسئلة الناس ومناقشتهم له بمثل ما يناقشهم هو بأن أعلن أنه لا يعرف شيئاً ، وأنه يعلم الأسئلة جميعها ، بيد أنه لا يعلم شيئاً عن أجوبتها وقال عن نفسه متواضعا : إنه من هواة الفلسفة ، وكان يعنى بقوله هذا أنه ليس واثقاً من شىء غير تعرض الإنسان للخطأ . وأنه ليس لديه طائفة من العقائد والمبادىء المقررة الجامدة وشرع سقراط

---

(١) قصة الحضارة — تأليف ول ديورانت وترجمة الأستاذ محمد بدران الجزء الثانى من المجلد الثانى ص ٢٢٦ .

يقوم بواجب الحصـــول على أفكار واضحة . ويقول عن نفسه « إنه سيتحدث من حين إلى حين عما يهم الجنس البشرى ، فيبحث عن الصالح وغير الصالح ، والعادل وغير العادل ، وما يتفق مع العقل وما لا يتفق معه ، وما يعد شجاعة وما يعد جبناً ، وعن ماهية الحكومة التى تسيطر على الناس وعن صفات الرجل البارع فى حكمهم ، ثم يستطرد إلى موضوعات أخرى .. يرى أن من يجهلونهـا يعدون بحق فى طبقة العبيد » .

وكان سقراط إذا صادف فكرة غامضة ، أو تعميماً مبهماً غير قائم على الحقائق أو هوى خامر المتحدث إليه على غير علم منه ، تحدّى محدّثه بقوله (ما هو ؟) ثم سأله أن يحدد ما يقوله تحديداً واضحاً دقيقاً . وكان من عادته أن يصحو مبكراً ويذهب إلى السوق العامة ، أو ساحات الألعاب أو مدارسها أو إلى حوانيت الصناع ، ويأخذ فى مجادلة أى شخص يتوسم فيـه الذكاء المتقد ، أو الغباء المسلى ، وكان يسأل « ألم يعمل الطريق إلى أثينا لـكى يتحدث الناس فيه ؟ » .

وكانت الطريقة التى يتبعها سهلة خالية من التعقيد ، كان يطلب إلى من يحدثه أن يعرف فكرة عامة شاملة ، ثم يبحث هذا التعريف ليكشف عما فيه من نقص ، أو تناقض أو سخف ، ثم يستدرج محدثه بأسئلته المتلاحقة المتعاقبة إلى تعريف أتم ، وأصبح لا يقوله هو أبداً ، وكان فى بعض الأحيان يكشف بطريقة التهكم السقراطى المشهور عن النتائج المضحكة السخيفة التى تترتب على التعريف أو الرأى الذى يستهدف هدمه .

وكان سقراط مولعاً بالتفكير المنظم شغوفاً به ، يحب أن يصنف الأشياء المفردة حسب جنسها ونوعها وما بينها من فوارق معينة ، وبذلك صار هو السبيل إلى طريقة أرسطاطاليس فى التعريف ، وإلى نظرية

أفلاطون فى الأفكار ،وكان يصف الجدل بأنه فن التمييز بين الأشياء بعناية ، وأنار دياجير المنطق المظلمة بفكاهته التى قدر عليها ألا يطول أجلها فى تاريخ الفلسفة .

وكان معارضوه يعيبون عليه أنه يهدم ولا يبنى ، وأنه يرفض كل جواب ولا يجيب هو بشىء من عنده ، وأنه بهذا أفسد الأخلاق وشل التفكير ، وأنه فى كثير من الحالات ترك الفكرة التى أراد أن يوضحها وهى أكثر غموضاً من ذى قبل .

وقد أجاب سقراط عن هذا النقد وأمثاله بقوله : إنه ليس إلا قابلة كأمه ، « إن اللوم الذى يوجه إلىّ كثيرا ، وهو أنى أسأل الناس أسئلة وأن ليس لدى من العقل ما أستطيع به أن أجيب عنها ، لوم عادل لا اعتراض لى عليه ، وسببه أن الله قد أرغمنى على أن أكون قابلة ، ونهانى عن أن ألد .

وكان سقراط يرفض أن يأخذ أجراً على تعليمه ، وكان تلاميذه يحبونه أشد الحب رغم عيوبه التى كانت تضايقهم . قال ذات يوم لواحد منهم : « ربما استطعت أن أساعدك فى السعى لنيل الشرف والفضيلة ، لأن كلا منا يميل إلى حب صاحبه ، وأنا إذا أحببت الناس من كل قلبى وبادلونى حبهم من كل قلوبهم ، يسوؤنى غيابهم عنى كما يسوؤهم غيابى عنهم ، وأتوق لصحبتهم كما يتوقون لصحبتى » .

ويمثل أرسطوفى رواية السحاب تلاميذ سقراط بأنهم قد أنشأوا مدرسة فى مكان معين يجتمعون فيه ، غير أننا لا نجد عقيدة خاصة أو مبدأ معيناً يجمع عليه أتباعه ، فقد كانوا يختلفون فيما بينهم اختلافا شديدا ، وأصبحوا زعماء لأشد المدارس اختلافا فى اليونان كمدرسته الأفلاطونية

والكاسبية والرواقية . . الابيقورية ، والتشككية .. فكان منهم انتسبتان الفخور الذليل الذى أخذ عن أستاذه البساطة فى الحياة والزهد فى متاعها، وأسس المدرسة الكاسبية ، ولعله سمع سقراط يقول « لأنتيفون » : « يبدو أنك تظن أن السعادة فى الترف والإسراف ، أما أنا فأرى أنك إذا لم تكن فى حاجة إلى شىء كنت شبيهاً بالآلهة وأنك إذا قللت من حاجاتك قدر استطاعتك أصبحت أقرب ما تكون إلى الآلهة » .

وكان منهم ارستيوس الذى بنى على اعتراف سقراط بأن « اللذة خير » — العقيدة التى نشرها بعد ذلك فى قورينى والذى دعا إليها بيقور فى أثينا فيما بعد .

وكان منهم أقليدس الميفارى الذى جعـــل الجدلية السقراطية التشككية تنكر المقدرة على كل معرفة حق . ومنهم أفلاطون الذى تأثر خياله القوى الخصب بالفيلسوف الحكيم تأثرا لم يفارقه طول حياته حتى امتزج العقلان وصارا فى تاريخ الفلسفة عقلا واحدا . .

وفى سنة ٣٩٩ ق . م وجه الاتهام إلى سقراط لأنه « لا يعترف بالآلهة التى تعترف بها الدولة ، بل يدخل فيها كائنات شيطانية ، وأنه مذنب كذلك لأنه أفسد الشباب .

ودافع سقراط عن حرية المناقشة فى خطبة متحررة معروفة فى التاريخ باسم « دفاع سقراط » وقد بنى سقراط دفاعه على دعامتين هما :

أولا : للإنسان أن يرفض رفضاً باتا أن تجبره سلطة بشرية على سلوك سبيل يرى بعقله أنه ضلال ، وهو بذلك يرفع الضمير الفردى فوق القانون البشرى .

وهو يذكر بعد ذلك ما قام به من عمل فى حياته ليضرب مثلا على

البحث الديني ويقول : « إنه مقتنع اقتناعا عميقا بأنه وقف حياته على الأبحاث الفلسفية تنفيذا لإرادة الهيئة وهو أنه يفضل الموت علـــى أن يخالف هذا الاعتقاد .

ويستطرد فيقول للقضاة :

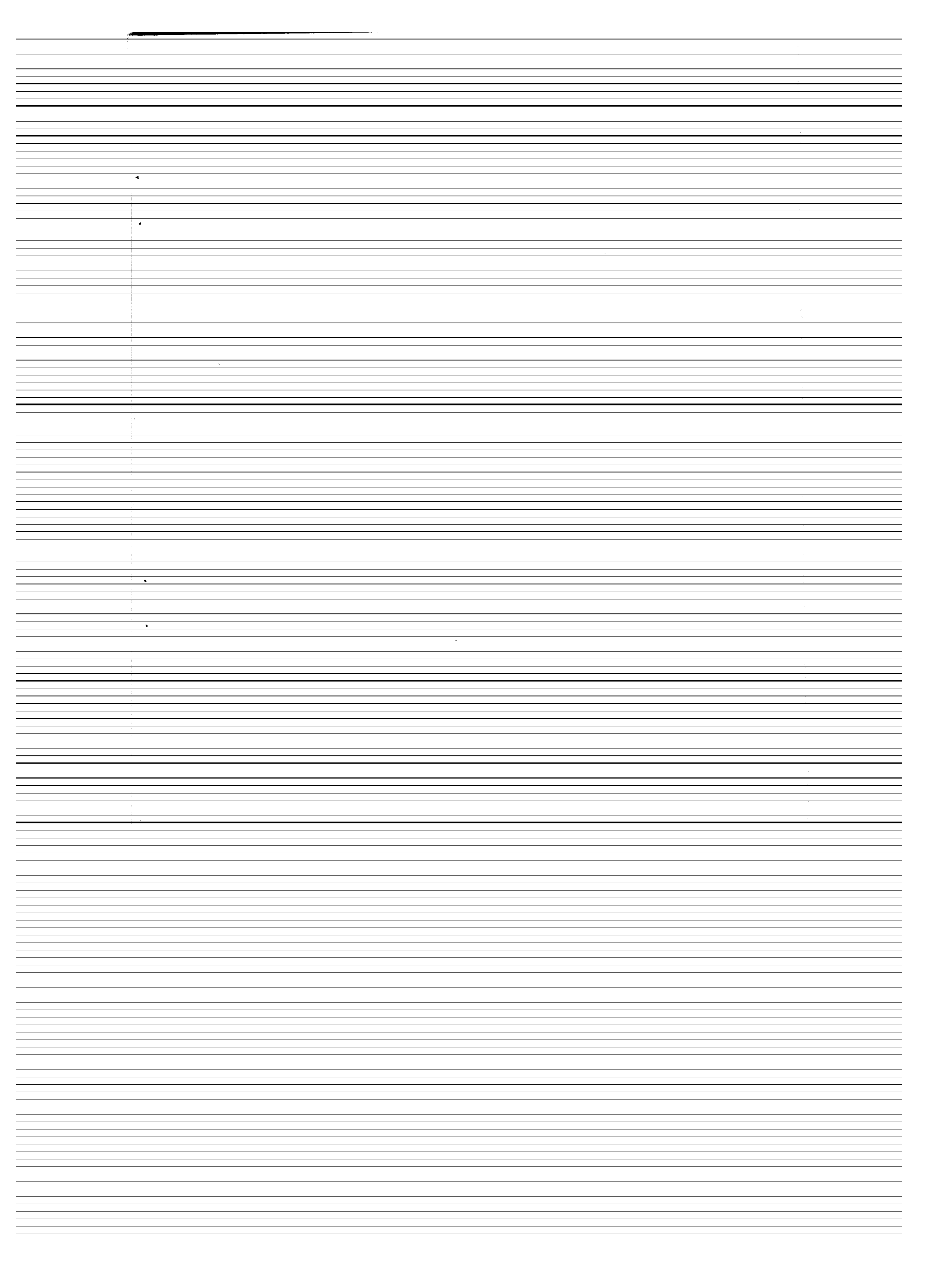
« إذا شئتم أن تبرءوني على أن أهجر بحثي في سبيل الحق فإني سأقول لكم : إني شاكر لكم أيها الاثيغون ، ولكنني سأطيع الله وألا أطيعكم ولن أمتنع مادمت حيا ومادامت لدى قوة عن ممارسة الفلسفة أو تعليمها للناس ، أعظ كل من ألقاه على طريقتي الخاصة وأقنعه وأقول له : أي صديق لم تعنى كل هذه العناية بادخار أكبر قدر مستطاع من المال والشرف والسمعة الطيبة ولا تدخر إلا النزر القليل من الحكمة والحقيقة ؟ إنني لاأعرف أيها السادة طعم الموت ، إنني لا أخافه ، ولعله شيء جميل ، ولكنني واثق أن هجراني رسالتي شيء قبيح ، وأنا أفضل مايحتمل أن يكون جميلا على ما أنا واثق أنه قبيح » .

ثانيا : يؤكد سقراط أن حرية المناقشة فيهـا خير الشعب فيقول :

« إنـكم لتجدون مني ناقداً منبهاً ، يثابر على دفعكم باللوم والإقناع ، ويداوم على فحص آرائكم ، ويحاول أن يريكم أنكم تجهلون فعلا ماتتخيلون عرفانه ، إن الخير الأعظم ليبدو في بحث تلك الموضوعات التي تسمعونني أناقشها كل يوم ، وإن الحياة لاتستحق الاعتبار إذا لم نقومها بهذا الحوار .

غير أن هذا الدفاع المجيد لم يجد فتيلا ، وقتل سقراط بالسم سنة ٣٩٩ ق . م .

حمزہ بن عبدالمطلب



جاء محمد بن عبد الله إلى الدنيا وملء راحتيه زنابق وورود يعطر بها الأجواء. ويفتح منافذ فى أدمغة الناس، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى الحق والطريق المستقيم.

وكان محمد صلوات الله عليه رضى الخلق، والخلق الكريم يضىء ويبهر، كان نقىّ القلب، صافى السريرة، طاهر النفس..

وكان يدعو الناس إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، ويناقشهم فى هدوء وبالمنطق القوى السليم، فآمن به الذين صفت قلوبهم، وسمت نفوسهم. وتفتحت عقولهم وبصائرهم للنور الإلهى الذى أشرق على الجزيرة العربية ليهدى الإنسانية جمعاء..

أما الذين عميت بصائرهم وغشيهم الجهل فلم يبصروا هذا النور الباهر؛ فقد ناصبوا الرسول صلوات الله وسلامه عليه العداء، وكذبوه، وسخروا منه. ولكنه كان يعتصم بالصبر ويدعو الله أن يغفر لهم ويقول: «اللهم اهْدِ قومى فإنهم لا يعلمون».

ولكن هذه الوداعة الرقيقة، وهذا الحلم الواسع، وهذا الأدب الرفيع لم يزد أعداء الإسلام إلا غلوًّا فى إيذاء النبىّ الكريم.

وكان أعداء الإسلام وأعداء الرسول يجتمعون فى ساحة الكعبة يتذاكرون أمره ويتندرون به، ويستمع هؤلاء فى غبطة وحبور إلى ما يرويه أبو جهل عن إيذائه للنبى العظيم، وإن شيئاً من المرارة يفيض من قلوبهم من هذا الرجل الغليظ القلب الذى يغريه نبل محمد وتسامحه بالمزيد من الأذى، وهم يعلمون أن محمداً إنما يسكت عنه عفافا عن الأذى

وحلما عن الجهل ، ولو انساق مع نفسه واسترسل مع الغضب لعرف كيف يؤدب هذا المغرور ، ويلقنه درساً قاسياً لن ينساه ، بل إن بعضهم يشكر من محمد هذا الحلم ويرى أنه ضعف لأنهم يعرفون أنه رجل شجاع ، قوى القلب ثابت الجنان ، لا يهاب أبا جهل ولا أبا لهب ، ولو شاء لأدبهما ولألزمهما حدودهما ، ولكنه صبور كريم ، على خلق عظيم ، يهدف إلى ردهم عن الجاهلية بحلمه وكرم نفسه .

وإنهم يتساءلون : ماذا يدفع هذان الرجلان وأمثالهما إلى هذا الإسراف فى الخصومة ، والإمعان فى إيذاء النبى الكريم ، وهو لم يؤذ أحداً ، ولم يمس قريشاً ولا شيئاً من مال قريش بما لا يرضيها ؟ . وقد يضحك بعضهم مما يرويه هذا الكهل الغر أبو جهل ، ويعجبون كيف يرضى لنفسه هذا العبث الذى لا ترضاه قريش من شيوخها ويجعل نفسه لعبة فى يد العابثين الذين يغرونه بالنبى العظيم .

ويحدثه بعض فضلاء قريش فى ذلك يريدون أن يردوه بالتى هى أحسن عن أذاه ، ولكن أبا جهل لا يرتد ، ولا يرتدع ، فقد خلق غليظ القلب ، جافى الطبع ، مغلق النفس ، لا يكاد أدب محمد وحلمه يردانه عن غيه ، ولم يعد هناك مناص من أخذه مرة أخذاً شديداً حتى يعود إليه صوابه .

* * *

وكان محمد صلوات الله وسلامه عليه يتخذ لنفسه بين الحين والحين مجلساً عند الصفا يدعو الناس فيه إلى دين الحق ، ويجادلهم بالحسنى ، فإذا لم يجتمع إليه أحد انفرد بنفسه يتأمل فى خلق السموات والأرض ، ويفكر فى شأنه ، وبينما هو جالس ذات يوم مر به أبو جهل ، فأغراه

انفراد محمد بالعدوان عليه كعادته فى كل وقت ، فآذاه وشتمه ، وناله ببعض ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومولاة لعبد الله بن جدعان فى مسكن تسمع ذلك ، ثم انصرف عنه فذهب إلى ناد من قريش عند الكعبة فجلس معهم .

وجاء حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه متوشحاً قوسه ، راجعاً من صيد له ، وكان يخرج للصيد دائماً ، فإذا رجع من الصيد لم يذهب إلى بيته حتى يطوف بالكعبة وكان إذا فعل هذا لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث إليهم ، وكان رجلا قوياً ، شديد البأس فلما مر بالولاة ، وقد رجع الرسول الكريم إلى بيته قالت له : « يا أبا عمارة . . لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفاً من أبى الحكم بن هشام ، وجده ها هنا جالساً فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد صلى الله عليه وسلم » .

فظهر الغضب على وجه حمزة ، لما لحق محمد من أذى ، وما مسه من ضر وخرج حمزة يسعى ، ولم يقف على أحد ، فقد حز فى نفسه أن يهان ابن أخيه ، ويعاب دون ما سبب يدعو إلى ذلك . فلما دخل المسجد أخذ يدور بعينيه فى أرجائه بحثاً عن هذا الرجل الفظ الغليظ القلب الذى أمعن فى إيذاء محمد ، وأسرف فى خصومته إسرافاً شديداً ، فأبصر به يجلس إلى القوم ، فتقدم إليه ، حتى إذا قام على رأسه ضربه بالقوس ضربة قوية شجته شجة منكرة ثم قال : « أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟. فرد ذلك على إن استطعت » .

فنهض بعض رجال بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة فإنى والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً .

وكانت هذه الحادثة سببا فى إعلان حمزة لإسلامه ، وعرفت قريش يومئذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز وامتنع عليها ، وأن حمزة سيدافع عنه دفاعا مجيدا ، فكفوا عنه بعض أذاهم .

٢

دخل حمزة بن عبد المطلب فى دين الحق ، فى لحظة اشتدت فيها حاجة الإسلام إليه . وقد أراد الله سبحانه أن يكون دخوله الدين الحق على وجه من الشهامة يكشف لنا الكثير من نواحى عظمته ، فقد كان قلبه يرنو إلى محمد وما يدعو إليه منذ وقت طويل ، وكان بطبعه رجلا شهما ، ذكى الفؤاد ، صافى القلب ، ينفق وقته فى الصيد . شأنه فى ذلك شأن الخليين من ذوى المروءة والنجدة .

وكان قد سمع محمدا يدعو إلى الإسلام ، ووعى منه كلامه وآمن به ، وصمم على أن يقف فى صفه دفاعا عن حقه فى أن يقول ما يريد . وانصرف بعد ذلك إلى صيده ، لأنه لم يكن يطيق السكوت أو يركن إلى الخمول . وقد خلقه الله شجاعا ثابت الجنان ، تتوق نفسه إلى الحرب والنضال .

وكان يرى قريشاً تحاول أن ترد الرسول الكريم عن دعواه بالمناقشة الهادئة الرقيقة حيناً ، وبالعنف الشديد أحيانا أخرى .

ولكن هذا العنف لم يكن يتجاوز السب يصدر عن حمق من الذين عميت أبصارهم عن النور الباهر من أمثال أبى جهل وأبى لهب ، فلما بلغه أن أبا جهل جاوز الحد ، واشتد فى سباب ابن أخيه وصديقه ، تصدى له على هذا النحو القوى العنيف الذى ردّ إلى أبى جهل صوابه .

ولكن .. لماذا سكت هذا الرجل القاسي القلب على ذلك ، وكفه رجال بنى مخزوم عن التعرض لحمزة ؟ لعله رأى فى عينى حمزة من الغضب والاستعداد لرد العدوان ما أخافه وأرهبه . ولو قد نهض رجال بنى مخزوم لحمزة لقضى عليهم قضاء مبرماً . وربما أوقدت نيران خصومة عنيفة بين قريش ، لا يأمن أبو جهل وأمثاله مصيرهم فيها ، ففضل أن يطوى صدره على جراح قلبه ، أو لعل ضميره قد صحا من نومه ، فبعث إلى نفسه الندم على ما أغلظ فى الكلام مع « محمد » وهو الذى دفعه إلى السكوت ، لأن سكوت محمد عنه وحلمه ونبله ، كان خليقاً أن يخجله من نفسه مهما بلغت غلظة نفسه وما انطوى عليه قلبه من حقد أسود رهيب .

٣

كان عبد المطلب بن هاشم من أشراف قريش ، ولكنه يمتاز عن قومه بالكثير من الوقار وميل إلى الدين ، يعظم ما كان قومه يعظمون من تلك الآلهة ، ولكن عن إخلاص وصدق . وقد أتيحت له أشياء زادته امتيازا عن قومه ، فهو قد احتفر بئر زمزم .

وهو لم يحتفرها من ذات نفسه ، وانما رأى فى المنام من يأمره باحتفارها وحدد له مكانها ، فأقبل على صنع ما أمر به حتى أتمه .

وقد وجد كنزا فى أثناء احتفار البئر قبل أن يصل إلى الماء فنازعته فيه قريش فجعله للكعبة ، ولم يأخذ هو ولا غيره منه شيئا ، ثم انبعث الماء فنازعته فيه قريش ترى أن البئر لها ويرى هو أنها له لأنه احتفرها بيده وانبعث ماؤها بجهده وكده .

وأمعنت قريش فى الخصومة ، حتى أجمعوا رأيهم على الاحتكام إلى

أحد الكهان فأوفدوا مع عبد المطلب وفدا يخاصمونه إلى ذلك الكاهن ، غير أنهم لم يحتاجوا إلى هذا الاحتكام لأن آية ظهرت لهم فى الطريق أقنعتهم أن عبد المطلب ليس كاذبا ولا متكلفا .

وفى أثناء هذه الخصومة شعر عبد المطلب أنه وحيد ليس له من ولد ينصرونه فنذر لئن رزق عشرة منهم ليقربن أحدهم إلى الآلهة .

وقد رزق عشرة من الولد ، فأراد أن يقرب أحدهم ، وهم بذلك ولكن قريشا رفضت ذلك ، وما زالت به حتى أقنعته بأن يقرع بين ابنه وبين عشرة عشرة من الإبل فجعل كلما أقرع خرج السهم على ابنه حتى بلغت الإبل مائة فقربها إلى الآلهة ونجا ابنه ذاك الفتى عبد الله ، على أن عبد الله الذى افتداه أبوه بالإبل فأغلى فى الفداء لم يعمر طويلا ، وإنما زوجه أبوه ثم أرسله إلى قومه للتجارة إلى الشام . فذهب ولم يعد ، أدركه الموت بيثرب فى عودته من الشام ، وقد ولد له بعد موته صبى هو الذى اختاره ليأتى الإنسانية بدين الحق .

وقد توفى عبد الله وحمزة فى السادسة من عمره ، فشب وهو يسمع من أهله أخبار أخيه الذى عصفت به يد المنون وهو فى ريعان الشباب على صورة محزنة فى المدينة بعيدا عن أهله وزوجه . فلما بلغ حمزة مبلغ الإدراك كان من أرق الناس لابن أخيه اليتيم ، وكان يؤثره بالحب والمودة لما رأى منه كرم خلق ، وصفاء نفس ، ونقاء قلب ، فجمع الله بين قلبيهما برباط قوى متين .

وكان حمزة بن عبد المطلب يكبر محمدا بأربع سنوات ، فلم تكن الصلة بينهما صلة العم بابن أخيه بل صلة الصديق بالصديق . وقد انصرف محمد منذ السن الباكرة إلى ما هيأه الله له من الرعى والتجارة، فى حين انصرف .

حمزة إلى ما كان أبناء عبد المطلب منصرفين إليه من اللهو حيناً ، ومن شئون السيادة حيناً آخر .

وكان محمد يصطفى حمزة ، ويفضى إليه بذات نفسه قبل أن ينزل عليه الوحى ويبعثه الله نبيا للعالمين ، ولما عرضت السيدة خديجة بنت خويلد نفسها على محمد ليتزوجها ،كان حمزة أول أهله سعياً فى إتمام ذلك الزواج ، ولما كانت خديجة تفوق نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفا وأكثرهن مالا ، كان كل قومها حريصا على الزواج منها لو يقدر عليه . وقد سر ذلك حمزة ، وشرع يعين محمدا عليه ، فخرج معه حتى دخل على عمها عمرو ابن أسد فخطبها إليه وظل بعد ذلك صديقاً له وصفياً لايكاد محمد يفعل شيئا حتى يحدث فيه حمزة ، ومضت الأيام فى طريق الزمن ونزل الوحى على محمد فى غار حراء ، يأمره بالدعوة إلى الإسلام ، وقام محمد عليه السلام بأداء الرسالة ، يدعو الناس إلى نبذ عبادة الأوثان ، والإيمان بالله الواحد القهار ، فلم يلق إلا شراً ونكراً من الذين ران على قلوبهم ، وغشيت أبصارهم ، ولكنه مضى فى الدعوة إلى الدين الجديد لم يهن ، ولم يضعف ، وبينما كان الرسول العظيم يعمل جاهدا على نشر الدعوة ، ويتعرض للأذى ، كان حمزة سادراً فى لهوه البرىء من الصيد ، حتى إذا بلغ السيل الزبى ، وكان ما كان من أبى جهل أعلن حمزة إسلامه على ملأٍ من قريش .

وبدأ حمزة يفكر ، وانثالت على عقله ذكريات الماضى فإن ابن أخيه محمداً أثير على نفسه ، فهو يحبه ، فقد قضيا سنوات الصبا معاً ، وهذا محمد يمر فى تجربة مريرة ، يحسبه الناس وحيدا لامعين له ، وحمزة سادر فى صيده ولعبه ومرحه كأنما الأمر لايعنيه ، ولو كان محمد يدعو إلى شر أو معصية لكان لحمزة عذر فى التخلف عن مناصرته . أما وهو يدعو الناس إلى الحق

الناصح والطريق المستقيم ، ومكارم الأخلاق ، والفضائل السامية ، وخير الدنيا ونعيم الآخرة ، فكيف السبيل إلى التأخر ؟ وهؤلاء أصحابه الذين بايعوه فى العقبة يبدون من سمات الخلق النبيل مايدفع الإنسان إلى اتباعهم وسلوك نهجهم فلماذا التردد ؟ هنا شرح الله قلب حمزة للإيمان ، واصطفاه للجنة والنعيم ، فلم يشعر إلا وهو فى طريقه إلى دار « الأرقم » حيث كان محمد يجتمع بالمسلمين ، حتى إذا جاء إلى مجلس الرسول ، بسط كفه وبايعه بقلب صاف ، وجنان ثابت ، وعاهده على أن يكون نصيره طول عمره .

٤

كان إسلام حمزة بداية عهد جديد فى تاريخ الإسلام ، فقدبدأت قلوب بنى عبد المطلب ترنو إلى محمد وتطالع بقية قريش بالعداوة ، ولم يشذ عن إجماعها فى تأييد محمد ونصرته إلا أبو لهب بن عبد العزّى ، وكان خامل التفكير ، ضيق الصدر ، وكان يقول : يعدنى محمد أشياء لاأراها ، يزعم أنها كائنة بعد الموت ، فماذا وضع فى يدى بعد ذلك ؟ ثم ينفخ فى يديه ويقول: تبالكما ماأرى فيكما شيئا مما يقول محمد وكان يجد نفسه سعيداً إذ تؤكد له امرأة — مثل هند بنت عتبة أنه نصر اللات والعزّى بهذا الجهل .

وبدأ الخوف يسرى فى قلب قريش لهـــذا الموقف الذى يقفه بنو عبدالمطلب منها بعدإسلام حمزة ،وأخذت سادات قريش يتمثلون الخطر الزاحف من جراء هذا الانفصال،ولم يعد فى إمكانهم أن يستصغروا أمر محمد أو يعدوا عليه بالسخر والمهانة كما كانوا يفعلون ، لأنهم أصبحوا يخشون غضب حمزة وأمثاله من الرجال الصناديد الذين حفلت بهم الدعوة الإسلامية .

وأوفدوا له عتبة بن ربيعة ، فقال للرسول صلى الله عليه وسلم : ياابن أخى إنك منا حيث قد علمت من الشرف فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وأنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم ،

وعبت به آلهتهم ، ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر منها لعلك تقبل منها بعضها ، فقال له الرسول الكريم : قل يا أبا الوليد أسمع . قال : ياابن أخى إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لانقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا (١) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع (٢) على الرجل حتى يداوى منه .

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم . قال : فاسمع منى . قال : افعل ، فقال « بسم الله الرحمن الرحيم . . « حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه(٣) » . ثم مضى الرسول الكريم فيها يقرؤها عليه . فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها يسمع منه ، ثم انتهى الرسول الكريم إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ماسمعت ، فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ماوراءك يا أبا الوليد ؟ قال ورائى أنى قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله

---

(١) الرئى : ما يتراءى للإنسان من الجن .

(٢) التابع : من يتبع من الجن .

(٣) سورة فصلت الآيات

ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم .

وأخذ الإسلام ينتشر بمكة فى قبائل قريش من الرجال والنساء ، كانت فاطمة بنت الخطاب ، وزوجة سعيد بن زيد قد أسلمت ، وأسلم بعدها سعيد بن زيد وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر بن الخطاب ، وعرف عمر أن أخته وزوجها قد أسلما فذهب إلى بيتهما ، وحين اقترب من البيت سمع خباب بن الأرت يقرأ القرآن ، فلما دخل عمر قال : ماذا أسمع ؟ قالا له : ما سمعت شيئا ، قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش بزوج أخته سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة لتكفه عن زوجها فضربها فشجها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته وزوجها : نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما تريد .

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى ، وقال لأخته : أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفاً ، أنظر ما هذا الذى جاء به محمد . فلما قرأ عمر صدراً من سورة طه ، قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه . .

فلما سمع ذلك خباب خرج إليه ، فقال له : يا عمر ، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول : « اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب فالله الله يا عمر .

فقال له عمر عند ذلك : دلنى يا خباب عن محمد حتى آتيه فأسلم ، فقال له خباب : هو فى بيت عند الصفا ، معه فيه نفر من أصحابه .

فأخذ عمر سيفه فتوحشه ، ثم عمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب الرسول الكريم فنظر من ثقب الباب فرآه متوحشاً بالسيف ، فرجع إلى الرسول الكريم وهو فزع خائف ، فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوحشاً السيف .

فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان يريد خيرا بذلناه له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه .

فقال الرسول الكريم : ائذن له .

فأذن له الرجل ، ونهض الرسول الكريم حتى لقيه فى الحجرة ، فأخذ بمجمع ثوبه ثم جذبه جذبة شديدة ، وقال : ماجاء بك يا ابن الخطاب ، فو الله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة .

فقال له عمر : يارسول الله ، جئتك لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله .

فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب الرسول أن عمر قد أسلم . فتفرق أصحاب الرسول الكريم من مكانهم ، وقد عزوا فى أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان الرسول ، وينتصفون بهما من عدوهم .

ولكن بنو عبد الدار لم يكن يرضيهم هذا ، إذ كانوا سادة فى قريش ، يحسدون بنى عبد المطلب على ماعسى أن يكون لهم من المكانة الرفيعة ، بهذا الرجل الذى نبغ فيهم وكانوا أذكياء لا يكاد يفوتهم صدق ما يدعو إليه محمد وخطوه ، فأخذوا يجمعون صفوفهم ، ويثيرون من استطاعوا من بطون قريش ، ومضوا يجادلون محمداً يريدون أن يصرفوا الناس

عنه بالمنطق كما كسبهم هو إلى دعوته بالمنطق فلم يفلحوا ، وزاد الإسلام انتشارا ، ثم كان إسلام عمر بن الخطاب وما أعقبه من اشتداد أذى قريش للمسلمين، فكان حمزة وعمر درعي محمد يردان عنه الباغي ، ولولاهما لعصفت قريش بالمؤمنين الوادعين عصفا ، ولكن خوفها من سيفي حمزة وعمر ردها إلى العقل ، فظلت لا تجرؤ على مهاجمتهم هجوما مسلحا ، ولم تكد تدرك منهم شيئا على شدة الأذى أمرا ذى بال .

مضى على الإسلام أربعة عشر عاماً والرسول الكريم فى مكة بين أعدائه ، ومعه على بن أبى طالب وأبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب . وأما باقى الصحابة فقد تركوا ديارهم وعشيرتهم وهاجروا إلى المدينة أو الحبشة ، حيث الأمن والهدوء ، وكان الموقف حرجاً ، وطلب أبو بكر من الرسول الخروج إلى المدينة فأجابه الرسول أن الله لم يأمر بذلك بعد ، وظهرت حكمة ذلك عند ما قررت قريش قرارها الأخير ، فقد ذهبت جميع الجهود التى بذلوها لينالوا من محمد وصحبه ، فازداد حنقهم ، ولم يبق فى قوس الصبر منزع ، ووجدوا أخيراً أن محمداً يكاد يكون وحيداً فى مكة . لا نصير ولا معين ، فعقدوا اجتماعاً فى دار الندوة للتشاور فيما يصنعونه بمحمد ، فاقترح بعضهم أن يحبس فى الحديد ، وأن يغلقوا عليه باباً ثم يتربصون به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، ولكن هذا الرأى لم يلق سمعاً ، فقال آخر : نخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا ، ثم لا نبالى بعد ذلك من أمره شيئاً ، ولكنهم خافوا أن يلحق بالمدينة ، فيحرض أهلها عليهم ، بما له من قوة الإقناع ، فيتصدوهم ويبطشوا بهم . واقترح أبو جهل أخيراً أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جليداً . وأن يعطوا كل فتى سيفاً بتاراً ، فيضربوه جميعاً ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه بين القبائل ولا تقدر بنو عبدمناف

على قتالهم جميعاً ، فيرضون بالدية ، وتستريح قريش من هذا الذى بدد شملها ، وفرق قبائلها شيعاً ، فاستقر رأيهم على هذا الاقتراح بالإجماع .

وبينما كانت قريش تأتمر بالرسول الكريم ، نزل عليه الوحى ، وأخبره بما يدبر له وأمره ألا ينام فى فراشه تلك الليلة ، فأرسل إلى علىٍّ وأسرَّ إليه أن ينام فى فراشه ، وأمره أن يتخلف بعده بمكة ، حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت عنده للناس ، ثم يلحق به . .

وفى المدينة آخى محمد بين حمزة وبين مولاه زيد ، فكان حمزة فخوراً بأخيه هذا ، وكان هذا آية من آيات الإسلام ، الذى يقرر أن الناس سواسية كأسنان المشط ، ولو قد تطلع مولى إلى أخوة حمزة فى الجاهلية لعد حمزة ذلك مهانة لا يكاد يمحوها دم ، ولكن الإسلام نور ، والنور إذا ملأ القلوب أزال نوازع الجهل والعصبية جميعاً .

* * *

استقر أمر الرسول الكريم فى المدينة ، وآتاه الله من عون أهلها ونصر من هاجر إليها من أهل مكة ما مكنه من السير بحكومتها وأهلها فى الطريق السوى . حتى إذا استقر أمر الإسلام ، واطمأن الرسول على أمره ، وجد الفرصة سانحة ليبدأ مع قريش ذلك الصراع العنيف الذى انتهى بنصر الإسلام وانتشاره فى الجزيرة العربية كلها . . .

وهنا أتيحت الفرصة لحمزة للعمل ، وكان حمزة جندياً شجاعاً لا يرهب القتال ، ومحارباً قوياً ، وكان قد لبث ينتظر الفرصة المواتية طوال فترة الدعوة السلمية الماضية ، فلما آن الأوان للإسلام لينتقل إلى دور جديد ، دور الكفاح الإيجابى حان الوقت ليفيد من حمزة . وكان الرسول الكريم يعرف من هم رجاله ، وما هى الملكات التى يتمتعون بها ، ولذلك عهد

إلى حمزة قيادة أول سرية إسلامية ، فكان حمزة بهذا أول قائد مسلم ، وأول سلسلة طويلة من القادة العظام الذين حملوا لواء الإسلام جيلا بعد جيل ، ومضوا بالعقيدة الكريمة موفقة منصورة فى مشارق الأرض ومغاربها .

عقد الرسول الكريم أول راية فى الإسلام لعمه حمزة بن عبد المطلب ، وأمّره على ثلاثين رجلا من المهاجرين ليعترضوا عيراً لقريش عائدة من الشام . وكان الرسول الكريم يهدف من هذه (الداورية) المسلحة التى عرفت باسم « السرية » بجرد الاستطلاع وإشعار قريش بقوة المسلمين وتأهبهم لنضال خصومهم ، وكان الرسول يتوقع أن يدفعهم حرصهم على أموالهم إلى أن يفهموا أن مصلحتهم تقتضيهم التفاهم مع أهلهم الذين هاجروا إلى المدينة تفاهماً يقى الطرفين شر العداوة والبغضاء ويكفل للمسلمين حرية الدعوة إلى الدين والحج إلى بيت الله الحرام بمكة ويضمن لأهل مكة فى نفس الوقت سلامة تجارتهم وأموالهم فى طريقها إلى الشام .

بعث الرسول حمزة فى هذه السرية ليلقى رأس المعاندين أبا جهل ابن هشام عند العيص من شاطىء البحر لعل أبا جهل يرتدع عن غيه ويكف عن هذا السفه الذى كان لا يزال يلقى به المسلمين قبل الهجرة ؛ وهذه القسوة التى يعامل بها من بقى منهم فى مكة بعد هجرة الرسول إلى المدينة .

ومما لا شك فيه أن الرسول لم يكلف حمزة القتال ؛ ولو أمره به لقاتل ؛ فلم يكن حمزة بالذى يخشى ثلاثمائة قرشى أياً كان العدد الذى معه قليلا ، اكتفى بإرهاب أبى جهل وقريش معه . وقبل وساطة مجدى بن عمر الجهنى وعاد إلى المدينة .

* * *

لم يكن الرسول داعية حرب ؛ بل كان داعية سلام .

كانت دعوة الرسول الكريم سلمية رفيقة لأنها حق ؛ وللحق مع هدوئه صولة تبدو مشرقة رحيمة ولكنها لقيت خصومة باطلة عنيدة .

وبدأ الصراع بين الحق والباطل .. بين الهدى والضلالة ..

ومضت قريش فى اضطهادها للمسلمين ، فوقف عقبة فى سبيل نشر الدين،ومنع المسلمين من الدخول إلى مكة لأداء فرائض حجهم ، لذلك فكر الرسول فى القيام بعمل إيجابى ضد مصالح قريش حتى تشعر بقوة المسلمين وقدرتهم على أن يحيقوا بها الضرر لعل هذا العمل يكشف العصائب عن عيون قريش ، فترجع عن غيها ، ويدفعها إلى محاولة التفاهم مع المسلمين . ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل وكانت بداية الصراع قافلة كبيرة خرج على رأسها أبو سفيان فى طريقها إلى الشـــام ، فخرج الرسول الكريم لاعتراضها ، ولكنه لم يتمكن من إدراكها ، فأعد العدة لملاقاتها فى أثناء عودتها ، وحتى لا تفلت القافلة عند عودتها أرسل الرسول طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زايد لاستطلاع أمرها ، فنزلا عند قبيلة جهينة بالحوراء وما كادت القافلة تمر بهما حتى أسرعا إلى الرسول الكريم ليفضيا إليه بخبر القافلة .

وكان خبر خروج الرسول لاعتراض القافلة فى رحلتها إلى الشام قد انتشر بين الناس ، ووصل هذا الخبر إلى أبى سفيان بن حرب وهو يقترب بقافلته فى طريق الحجاز ، وحذره بعض الأعراب من احتمال المفاجأة عند بدر ، ولما كانت القوة التى تحرس القافلة لا تزيد عن أربعين رجلا . خشى أبو سفيان وقوع القافلة فى أيدى المسلمين فى سهولة ويسر . ولذلك عزم على طلب النجدة من أهله بمكة . فبعث ضمضم بن عمرو الغفارى إلى مكة ليستنفر قريشاً ويخبرها بالخطر الذى يهدد قافلتها .

وقد أبلغ ضمضم هذا الخبر إلى قريش بطريقة مثيرة ألهبت مشاعر الناس ، إذ قطع أذنى بعيره ، وجدع أنفه ، ودخل إلى مكة وقد شق قميصه وأخذ يصيح :

« يامعشر قريش : اللطيمة اللطيمة ، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أدرى أن تدركوها أو لا . الغوث . الغوث » ..

وانتهز أبو جهل هذه الفرصة لاستنفار قريش لقتال المسلمين ، فمضى يخطب الناس عند الكعبة ويصيح فى جموعهم كى يخرجوا لإنقاذ قافلتهم .

* * *

تقدم المسلمون من موقعهم بوادى زفران فى طريقهم إلى بدر ، وكانت الأنباء قد وصلتهم باقتراب قافلة أبى سفيان ، فلما وصلوا بدراً ، كانت القافلة قد فاتتهم ولم يعد هناك مناص من قتال جيش قريش ، وأرسل أبو سفيان إلى قائد جيش قريش يقول له :

« إنكم قد خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا » .

ولقى هذا الرأى استجابة لدى كثير من رجال قريش ، ولكن أبا جهل ما كاد يسمع هذا القول حتى ثار ، ومار فى قلبه الحقد الأسود الذى يكنه للرسول فصاح : « والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم عليه ثلاثاً ننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها » .

وثار الخلاف بين رجال الجيش ، فريق يحبذ الرجوع إلى مكة بعد نجاة القافلة ، وفريق آخر يرى أنه لابد من القتال ، وانتهى الخلاف بعودة بنى زهرة فقط إلى مكة وتحرك جيش قريش إلى بدر . .

وعلى أثر قدوم المسلمين إلى بدر تقدم الرسول صوب الماء ، حتى إذا جاء أدنى مكان منه نزل فقال الحباب بن المنذر : يا رسول الله أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقـــدمه أو نتأخره ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فأجاب الرسول : بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

فقال الحباب : يا رسول الله إن هذا ليس لك بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزل ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبنى عليه حوضاً ونملأه ماء فنشرب ولا يشربون ثم نقاتلهم .

ونفذ الرسول فكرة الحباب حين اتضح له صواب رأيه .

* * *

خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومى من صفوف المشركين ، وقال يسخر من المسلمين : أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأموتن دونه ..

وكان الحوض من وراء المسلمين ، يحسب أن أحداً منهم لن يجرؤ على الوقوف فى طريقه ، وأنه يخترق صفوفهم آمناً أو كالآمن . فما هو إلا أن برز من الصفوف حتى تقدم له حمزة وضربه بالسيف ضربة قطعت ساقه ، فوقع على الأرض تقطر ساقه دما ، وبلغ به العتو أن أراد الزحف برغم ذلك حتى يصل إلى الحوض ليهدمه ، فلم يمهله حمزة وأجهز عليه . كل ذلك ورجال قريش ينظرون فى ذهول إلى هذا الرجل الشجاع حمزة ، الذى يقف كالأسد ، يدافع عن عقيدته فى بطولة فذة . وبدأ رجال قريش يفهمون أن الأمر جد لا هزل فيه ، وأن معركة رهيبة على وشك أن تقوم ، وليست المسألة نزهة جميلة يشرب فيها الخمر ، وتعزف القيان ..

وخرج عتبة بن ربيعة سيد قريش وأخوه شيبة وابنه الوليد ، يتحدون المسلمين ليبرزوا لهم من يجرؤ على الخروج من رجالهم . فأراد بعض الأنصار الخروج لهم ، فرضوا مبارزتهم فى شىء من الصلف ، وأبوا أن يبارزوا إلا قريشيين، فندب الرسول الكريم عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب وعلىّ بن أبى طالب فبرزوا لهم ، فأما على فلم يلبث أن قتل الوليد ، ولم يكد عتبة يتقدم من حمزة حتى ضربه حمزة فأجهز عليه ، ثم التفت إلى صاحبه عبيدة وقد ثبت له شيبة فأقبل إليه يعينه فأجهز عليه ، وبهذا فقدت قريش ثلاثة من قادتها فى بعض ساعة ، وزاد أمرها حرجا . ودارت معركة رهيبة ، وتهاوت السيوف ، وهجم المسلمون هجمة المؤمن الصادق لايكاد شىء يرده عن سبيله ، وخرج الرسول إلى الناس فحرّضهم على القتال فقال والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسبا ، مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة .

وكان حمزة بن عبد المطلب قد علم نفسه بريشة نعامة ثبتها فى صدره ، فكان طوال المعركة كالأسد الضارى لا يكاد يثبت فى مكان ، لايرى واحدا من كبار المشركين إلا انقض عليه انقاض الصاعقة وأجهز عليه ، ولا يرى واحدا من إخوانه المسلمين إلا خف لنجدته وأعانه على عدوه ، حتى روّع المشركين بنجدته وأوقع الرعب فى قلوبهم .

روى عبد الرحمن بن عوف أنه أسر أمية بن الخلف وابنه واقتادهما إلى صفوف المسلمين ، وإنه لسائر بينهما إذ سأله أمية : من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة فى صدره ؟ فقال عبد الرحمن : ذلك حمزة بن عبد المطلب .

فقال أمية : ذلك الذى فعل بنا الأفاعيل . .

ولما فرغ الرسول الكريم من عدوه أمر بأبى جهل أن يلتمس فى القتلى .

قال عبد الله بن مسعود : فوجدته بآخر رمق ، فعرفته ، فوضعت رجلي على عنقه ، وقلت له : هل أخزاك الله ياعدو الله ؟

قال : وبم أخزاني ، أمن رجل قتلتموه ، اخبرني لمن الدائرة اليوم ؟
قلت : لله ولرسوله .

ثم احتززت رأسه ، وجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله . هذا رأس عدو الله أبي جهل . فقال الرسول : الله الذي لا إله غيره .

قلت : نعم ؛ الله الذي لا إله غيره . ثم ألقيت برأسه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله .

وأسفرت معركة بدر عن انتصار رائع للمسلمين . نصر دخل به الإسلام في دور التوسع . وانصرف من بقي من المشركين إلى مكة وهم يشعرون أن يوم قريش قد دنا وأن جماعة فيها أسود من طراز حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب لن تغلب على أمرها أبدا . .

٦

ومضت قريش تستعد ليوم تبلغ فيه ثأرها . وجعل رجالاتها يمشون إلى بعض يدبرون لهذا الأمر عدته . وجمعوا أموالا هائلة حتى لم يعد أحد منهم رجلا كان أو امرأة — إلا ساهم في العدة بنفسه أو بماله . وخرج رجالهم وكماتهم وخلفهم الظعائن يشدون أزرهم ويحرضنهم على القتال ثأراً لمن لقي مصرعه في معركة بدر من بعولتهن أو أبنائهن أو اخوتهن . وكانت هند بنت عتبة أشد نساء قريش دعوة لهذا الثأر . إذ لقي أبوها وأخواها مصارعهم في بدر . وكان قلبها يمور بالحقد على حمزة . . بطل بدر والذي فعل بقريش ورجالها الأفاعيل . .

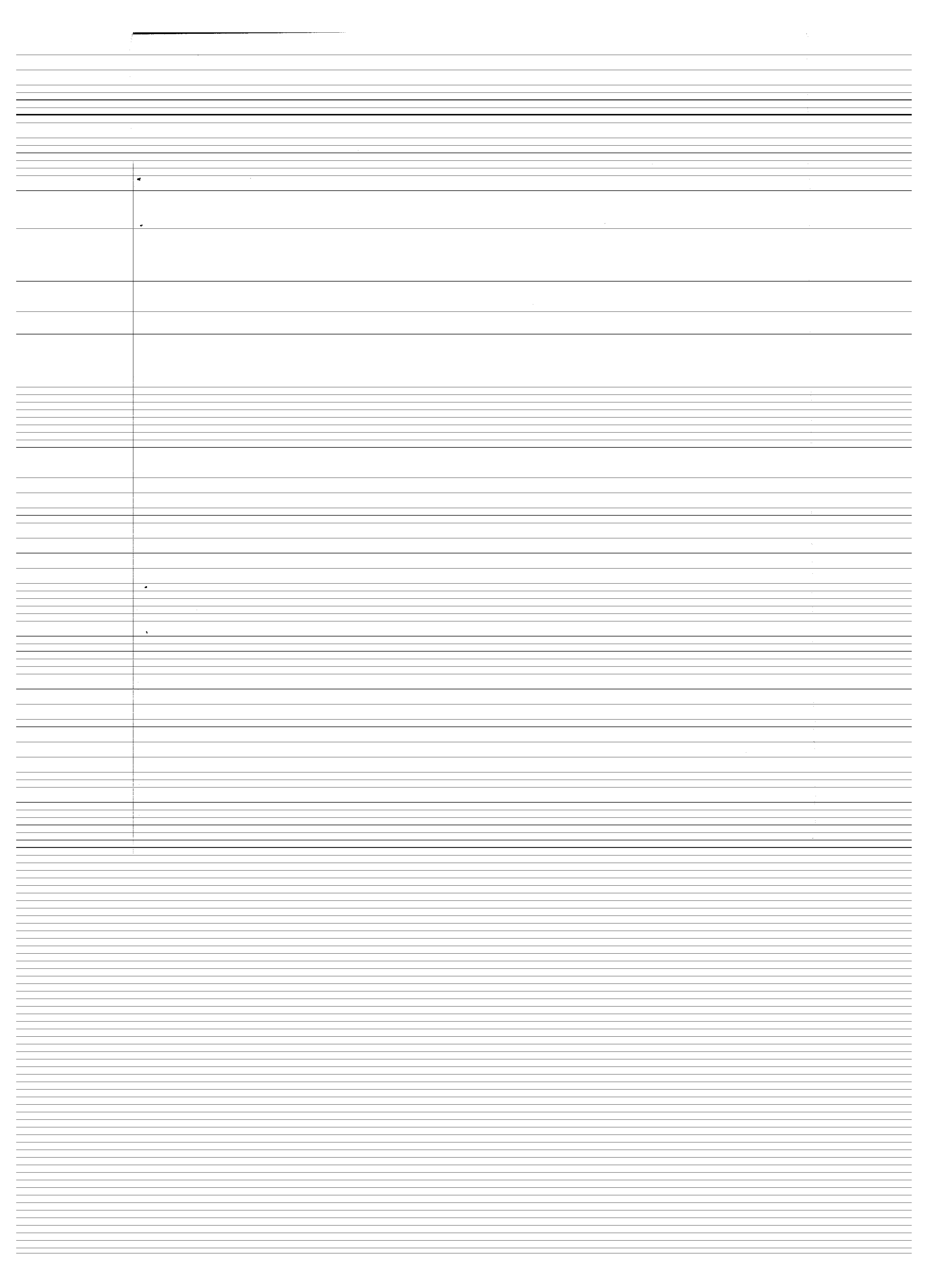
وكانت موقعة أحد وما حدث فيها من مخالفة رماة المسلمين لما قرره الرسول الكريم من خطة للمعركة ، كانوا خمسين رجلا يرمون بالنبل يقودهم عبد الله بن جبير وضعهم الرسول « ص » فى مخرم من مخارم جبل أحد ليحموا ظهور المسلمين من أن يفاجئهم المشركون من الخلف ، ثم ألتقى الجمعان وأبدى كماة المسلمين من الشجاعة ما يفوق الوصف ، وكان حمزة سيفا من سيوف الله لا يلقى مشركا إلا صرعه ، لقيه أرطاة بن عبد شرحبيل أحد كماة بنى عبد الدار وأحد حملة لواء قريش فقتله وعرض له شباع بن عبد العزى الغبشانى فأجهز عليه ، ومضى يضرب يمنة ويسرة والعيون له رصد ، وكل مشرك موتور يتحين لحظة يغتاله فيها .

وكان جبير بن مطعم قد رصد غلامه وحشيا « ووعده أن يعتقه إذا هو أصاب حمزة ، وكان وحشى عبداً حبشياً يجيد رمى الحربة الطويلة ، فلم يكد حمزة يفرغ من سباع بن عبد العزى ، حتى أتيحت الفرصة للحبشى ليصوب حربته نحوه ، ثم أرسلها فى قوة وعنف فوقعت فى ثنية حمزة ، فالتفت حمزة نحوه ومضى إليه يريد ليصرعه ، بيد أن الحربة كانت قد تمكنت منه وسال دمه فلم يلبث أن تعثر ووقع على الأرض وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها فى السماء ، وأسفرت المعركة عن هزيمة المسلمين ، وخرجت هند بنت عتبة تبحث عن قاتل أخويهـــا حتى إذا عثرت على جثمانه الكريم مثلت به أشنع تمثيل ، وخرج الرسول الكريم يلتمس عمه الشهيد ، فوجده ببطن الوادى على هذه الصورة المحزنة ، فبكى وقال : « لن أصاب بمثلك أبداً ، لم أقف موقفاً قط أغيظ إلىّ من هذا » ثم صلى عليه :

* * *

لقد دخل حمزة الإسلام منتصفاً لمحمد ، ومات مقاتلا فى سبيل الله ، وقد بلغ من تفانيه فى نصرة دين الحق أن محمداً سماه «أسد الله وأسد رسوله» وقد عاش فى أقسى فترات الدعوة ، ولم يعرف الحياة منذ أسلم إلا مضطهداً أو مجاهداً ولم يمهله القدر حتى يرى عزة الإسلام بعد فتح مكة ، وحتى يرى الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ، بل لم يمهله القدر حتى ينعم بشىء من الراحة لقاء هذا الكفاح المجيد الذى بذل . .

إن الله العلى الكبير ادخر له جزاءه كله فى الجنة التى جعلها مثوى لأكرم شهداء المسلمين .



عبد الرحمن الكواكبي

عبد الرحمن الكواكبي كاتب سياسي عربي ، لمع في أواخر القرن التاسع عشر في أثناء حركة المقاومة الفكرية ضـــد المستبدين الطغاة والمستعمرين العتاة .

ولد في حلب سنة ١٨٥٤ ، من بيت تليد المجد في حسبه وجاهه وعلمه ، فهو ينتمي في عروبته العريقة إلى البيت العلوي الكريم ، بيد أنه لم يعتمد على ذلك الحسب ولم يستمد مجده من تلك الأروقة الكريمة ، ولو شاء لعاش في دعة ورفاهية . ولكنه أدرك ما قال جده العظيم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، من أن قدر الرجل على قدر همته لذلك هجر حياة الدعة والرفاهية ، وآثر مشقة الكفاح ، وشظف النضال في سبيل قومه وقوميته .

وتعلم الشاب ما يتعلمه أمثاله من النابهين من أبناء وطنه ، وجمع إلى معرفته بلغته العربية اللغتين التركية والفارسية ، ويرجع الفضل في ثقافته الواسعة العميقة إلى مصادر أربعة : إلى المدارس التي تعلم فيها في انطاكية وحلب ، وإلى أهله الأقربين الذين عنوا بتثقيفه ، ولا سيما والده وخالته ، وإلى شخصيته الممتازة الطموح التي مالت إلى القراءة والاطلاع ، وإلى أسفاره واتصالاته في مختلف البلاد العربية والإسلامية .

ومالت به طبيعته إلى الكتابة ، فقد شعر منذ شبابه الباكر أنه صاحب رسالة إصلاحية ، وكان مجال ذلك في الصحافة ، فمارسها أول الأمر في جريدة « الفرات » وقبل أن يبلغ الثلاثين من عمره أنشأ جريدة « الشهباء » التي يقترن اسمها بالكفاح والبطولة ، إذ كان العهد عهد الحكم العثماني المباشر بما كان فيه من كبت للحريات ، واضطهاد للأحرار ، ولكن السلطات الحاكمة أغلقت الجريدة . ولم يفت ذلك في عضد الشاب الثائر ، فقد اتخذ من الهزيمة عزيمة ، فأنشأ صحيفة أخرى أسماها

« الاعتدال » ولكنه لم يكن فيما يكتبه فيها أكثر اعتدالا مما كان يكتب في « الشهباء » فصاحب العقيدة الراسخة لا يهادن ولا يساوم ، ومن ثم أغلقتها السلطات التركية كما أغلقت أختها من قبل .

وتنقل الكواكبي في وظائف الدولة ، ولكنه كما لم يكن في صحافته من المرتزقة الذين يداهنون الحكام ، ويتملقون غرائز القراء ، كذلك لم يكن في وظائفه مرتزقاً يخضع لقيود الوظيفة في عبودية للحاكم ، وإغضاء عن ظلمه للمحكومين ، فلم يكن من أجل ذلك أثيراً لدى السلطات الحاكمة ، ففضل الاستقالة ، واتخذ له مكتباً للمحاماة ، وكان أهم أعماله في هذا المكتب إرشاد أصحاب المظالم ، ومساعدتهم على الانتصاف ورفع الظلم عنهم ، فكان بذلك محامياً عن الأفراد ، كما كان محامياً عن المجتمع ، فزاد ذلك من غضب الحكام عليه .

وقد اشتغل الكواكبي حقبة من الزمن بالتجارة ، فكان مثال التاجر الصادق الأمين ، ولكن السلطات الحاكمة لم تكن تطيق بقاء رجل كالكواكبي لم يكن يشغله شاغل عن تنبيه أمته إلى ما هو واقع عليها من الظلم ، وكانت بلاد الشام يومئذ ولاية عثمانية وكانت مصر ترزح تحت النفوذ العثماني والخديو ، كما كانت تجمع إلى ذلك ظلم المستعمر البريطاني ، بعد أن كافح الكواكبي طغيان الحكم العثماني في حلب جاء إلى مصر لينشر فيها ومنها إلى جميع الأقطار العربية دعوته إلى الوحدة والقومية العربية لتلعب دورها الإيجابي في خلق كيان العرب .

هذه الدعوة الصريحة ضمنها كتابه « أم القرى » الذي كتبه في حلب ، وهو أول رحلاته في بيداء الفكر ..

يحدثنا عن هذه الرحلة فيقول :

« خرجت من وطنى ، إحدى مدن الفرات ، فى أوائل محرم سنة ست عشرة وثلثمائه وألف ، وكلى ألسن تنشد :

دراك فمن يدنف لعمرك يدفن — وما نافع نوح متى قيل قد فنى
إلام وأهل العلم أحلاس بيتهم — أما صار فرضا دأب هذا التوهن
هلموا إلى بذل التعاون إنه — بإهماله إثم على كل مؤمن
فإن الذى شادت الأسياف قبلكم — هو اليوم لايحتاج إلا لألسن

فأتيت بلدة لا أسميها ، وما أطلت المقام فيها حيث وجدتها كما وصف أختها أبو الطيب بقوله :

ولم أر مثل جيرانى ومثلى — لمثلى عند مثلهمو مقام
بأرض ما اشتهيت رأيت فيها — فليس تفوتها إلا كرام

فخرجت منها سالكا الطريق البحرى من أسكندرونة معرجا على بيروت فدمشق ثم يافا فالقدس ثم جئت اسكندرية فمصر ، ثم من السويس يممت الحديدة فصنعاء فعدن ومنها قصدت عمان فالكويت ، ومنها رجعت إلى حائل إلى المدينة على منورها أفضل الصلاة والسلام ثم على مكة المكرمة فوصلت اليها فى أوائل [1] ذى القعدة » .

هل زار الكواكبى هذه البلدان والعواصم : ؟ لا فقد هداه عقله الراجح أن يجعل من موسم الحج مؤتمرا عظيما يجتمع فيه الأقطاب والقادة والمصلحون لبحث الأمراض والعلل المستعصية التى تنخر فى جسم الشرق العربى ، الذى كان مهبط الوحى ومصدر الرسالات ومهد العبقريات ، فأصبح فريسة الأهواء والظلمات ، تخضع شعوبه الأبية للمظالم والعبوديات .

---

(١) أم القرى ٤ — ٥ .

وقد اجتمع إلى هؤلاء الأقطاب على صفحات كتابه الفريد « أم القرى » وأخذوا يتداولون ، وهذا هو الأصح ، وقد أخذ يرسم بقلمه البليغ النهج الواضح لنهضة الشرق وتطوره .

يقول الكواكبي فى كتابه « أم القرى » عن العرب :

« إن العرب أقدم الأمم اتباعا لأصول تساوى الحقوق وتقارب المراتب فى الهيئة الاجتماعية . والعرب أعرق الأمم فى أصول الشورى فى الشئون العمومية .

والعرب أهدى الأمم لأصول المعيشة الاشتراكية . والعرب من أحرص الأمم على احترام العهود عزة ، واحترام الذمة إنسانية ، واحترام الجوار شهامة ، وبذل المعروف مروءة » .

ودفاع الكواكبي عن كرامة الإنسان يبدو فى وضوح لا غموض فيه فى استمساكه بالحرية وهو يعرضها فى كتابه « أم القرى » بقوله على لسان المولى الرومى :

« الحرية هى ما حرمنا معناه حتى نسيناه ، وحرم علينا لفظه حتى استوحشناه ، وقد عرف الحرية من عرفها بأن يكون الإنسان مختارا فى قوله وفعله لا يعترضه مانع ظالم ، وفى فروع الحرية تساوى الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار أنهم وكلاء ، وعدم الرهبة فى المطالبة وبذل النصيحة ، ومنها العدالة بأسرها حتى لا يخشى إنسان من ظالم أو غاصب أو غدار مفتاك ، ومنها الأمن على الدين والأرواح والشرف والأعراض » .

ويقول أيضاً :

« الحرية أعز شىء على الإنسان بعد حياته ، وبفقدانها تفقد الآمال وتبطل الأعمال ، وتموت النفوس ، وتتعطل الشرائع وتختل القوانين » .

ويؤكد الكواكبي بأن منزلق التاريخ العربي نحو الهاوية بدأ عندما تنكب العرب عن سبيل المشاركة في شئونهم العامة ، فيقول على لسان البليغ القدسي :

« إن سبب الفتور هو تحول نوع السياسة الإسلامية ، حيث كانت نيابية اشتراكية ، أي ديمقرطية تماما فصارت بعد الراشدين بسبب تمادى المحاربات الداخلية ملكية قصيرة بقواعد الشرع الأساسية ثم صارت أشبه بالمطلقة » .

ولهذا السبب ، ولأسباب أخرى عديدة ، وجد الكواكبي على المتدينين الذين أدركهم الخور في الطبيعة فتهاودوا من شمم الإسلام إلى مآسن الاستسلام ، ونقم نقمة شديدة على المتسولين بالدين من غير هؤلاء الذين استجابوا لزخرف الأرض ومتاع إلى حين ، فتمرسوا بسياسة التدليس ، وتلينوا لفجرة السلاطين ، وزينوا لهم الاستبداد والرأى وإن كان مضرا ومعاداة الشورى وإن كانت سنة .

ويمجد الكواكبي الأديان السماوية جميعاً في تقريرها العبودية لله وحده لا لأحد من البشر ثم يقول : « وجاء الإسلام بالحكمة والعزم هادماً للتشريك بالكلية ومحكما لقواعد الحرية السياسية فأظهر للوجود حكومة كحكومة الخلفاء الراشدين التي لم يجد الزمان بمثال لها بين البشر . فإنهم أنشأوا حكومة قضت بالتساوى حتى بين أنفسهم وبين فقراء الأمة في نعيم الحياة وشظفها . وأحدثوا روابط أخوة وروابط هيئة اجتماعية وحالات معيشة اشتراكية لا تكاد توجد بين أشقاء يعيشون بإعالة أب واحد وفي حضانة أم واحدة .

وهنا نلمح اتجاهه إلى صبغ المجتمع العربي بالصبغة الاشتراكية التعاونية ويعززها في موضع آخر فيقول :

«ومن أعظم أسباب فقر الأمة أن شريعتنا مبنية على أن في أموال الأغنياء حقاً معلوما للسائل والمحروم ، فيؤخذ من الأغنياء ويوزع على الفقراء » إلى أن يقول : إذا عاش المسلمون مسلمين حقاً أمنوا الفقر وعاشوا عيشة الاشتراك العمومي المنتظم التي يتمنى مثلها أغلب العالم المتمدين الإفرنجي . « ولكن تعطيل الزكاة سبب الفتور القائم ، كما سبب إهمال الزكاة فقد الثمرات العظيمة من معرفة المسلم ميزانية ثروته سنوياً فيجعل نفقاته على نسبة ثروته ودخله . . ولا شك أن الواحد من الأربعين يفي حين يبذل لأجل هذه الثمرة وحدها » .

ثم يحدد هدفه فيقول :

« والمراد بالانتظام العام معيشة الاشتراك العمومي التي جاء بها الإسلام ولكن لم تدم أكثر من قرنين كان فيها المسلمون لا يجدون فيها من يدفعون لهم الصدقات والكفارات . وذلك لأن الإسلامية كما أسست حكومة ديمقراطية أسست أيضاً أصول هذه المعيشة التي يتمنى ما هو في نوعها أغلب العالم المتمدين الإفرنجي مع أنها تسعى وراءها منهم جمعيات منتظمة مكونة من ملايين كثيرة ، ومع أن لها نوعاً من الأصل في الإنجيل وهو تخصيص عشر الأموال للمساكين » .

وينتقل الكواكبي من الدعوة للحرية إلى طلب العلم والسعي إليه ، فيشبه المستبد في علاقته برعيته بالوصي الخائن القوي مع أيتام الأغنياء ، يتصرف في أموالهم وأنفسهم كما يشاء ما داموا قاصرين ، فكما أنه ليس من صالح الوصي أن يبلغ الأيتام رشدهم ، كذلك ليس غرض المستبد أن تتنور الرعية بالعلم .

ويقول :

« العلم قبس من نور الله ، وقد خلق الله نوره كشافاً مبصراً ولاداً للحرارة والقوة . والمستبد لا يخاف من العلوم كلها ، بل من التى توسع العقول وتعرف الإنسان ما الإنسان وما هى حقوقه ، وهل هو مغبون أو غير مغبون وكيف الطلب وكيف النوال وكيف الحفظ . . وإن بين الاستبداد والعلم حرباً دائماً وطراداً ، والاستبداد والعلم ضدان متغالبان فكل إدارة مستبدة تسعى جهدها فى إطفاء نور العلم ومصير الرعية فى حالك الجهل » .

ويقول فى موضع آخر :

« جاء العرب بعد الإسلام وأطلقوا حرية العلم وأتاحوا تناوله لكل متعلم ، فانتقل إلى أوربا حرا ، فتنورت به عقول الأمم ، ويقول عن العالم الغربى إنه مادى الحياة حريص على الاستثمار كأنه لم يبق عنده شىء من المبادىء العالية والعواطف الشريفة التى نقلتها إليه مسيحية الشرق » .

ويعقد هنا الكواكبى مقارنة طريفة بين المستبد الغربى والمستبد الشرقى فيقول : « إن أخوف ما يخافه المستبدون الغربيون أن يعرف الناس حقيقة أن الحرية أفضل من الحياة ، وأن يعرفوا النفس وعزها ، والشرف وعظمته ، والحقوق وكيف تحفظ ، والظلم وكيف يرفع ، والإنسانية وما هى وظائفها ، والرحمة وما هى لذاتها » .

أما المستبد الشرقى فيقول عنه :

« أما المستبدون الشرقيون وخوفهم من العلم فأفئدتهم هواء ترتجف من صولة العلم وكأن أجسامهم من بارود والعلم نار ، نعم يخافون من علم الناس معنى كلمة « لا إله إلا الله » ولماذا بنى عليها الإسلام ، بل وكافة

الأديان . ومعنى ذلك أنه لا يعبد حقاً سواه ، الصانع الأعظم ، ومعنى العبادة التذلل والخضوع ، فيكون معنى « لا إله إلا الله » لا يستحق التذلل والخضوع غير الله ، فهل والحالة هذه تناسب المستبدين أن يعلم عبيدهم ذلك ويعملوا بمقتضاه؟ حتى أن هذا العلم لايناسب صغار المستبدين كخدمة الأديان الأقوياء أو الأغبياء ورؤساء الجماعات الضعيفة ، ولهذا ما انتشر توحيد فى أى قطر إلا وتكسرت فيه قيود الأسر » .

ويقول الكواكبي عن الاستبداد والمجد :

« الاستبداد يضغط على العقل فيفسده ، ويحارب العلم فيفسده ، وإنى الآن أبحث فى أنه كيف يغالب الاستبداد المجد فيفسده ويقيم مقامه التجبر » .

ثم يمضى فى دعوته أمته إلى كسب المجد فيقول :

المجد لا ينال إلا بنوع من البذل فى سبيل الجماعة ، وبتعبير الشرقيين فى سبيل الله ، أو فى سبيل الدين ، وبتعبير الغربيين فى سبيل الإنسانية أو سبيل الوطنية .

وهذا البذل إما بذل مال للنفع العام ويسمى مجد الكرم ، وهو أضعف المجد أو بذل العلم النافع المفيد للجماعة ويسمى مجد الفضيلة ، أو بذل النفس بالتعرض للمشاق والأخطار فى سبيل نصرة الحق وحفظ النظام ويسمى مجد النبالة وهذا أعلى المجد . .

ثم يمضى فى تحليل المجد إلى أن يقول :

« والحاصل أن المجد هو المجد ، محبب للنفوس ولا تفتأ تسعى

وراءه وترقى مراقيه ، وهو ميسر فى عهد العدل لكل إنسان حسب استعداده وهمته ، وينحصر بتحصيله فى زمن الاستبداد بمقاومة الظلم » .

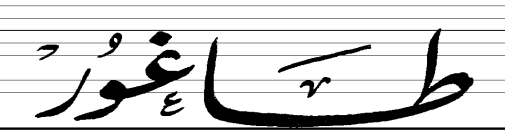
ويقابل المجد التمجد أى المجد الكاذب وهو القرب من المستبد بوسام أو تشرف بلقب أو منصب ، والمتمجد عدو للعدل ، نصير للظلم ، ويختاره المستبد من ضعاف النفوس ويغريه بالمناصب . والمتمجدون هم العصابة التى تعين المستبد على ظلم الرعية ، منهم الوزراء والموظفون والقواد والعمال ، فهم يشاركونه فى سرقة الأمة بأخذهم المنح الكبيرة والرواتب الباهظة ، فالمستبد فرد عاجز لا حول له ولا قوة إلا بهؤلاء المتمجدين ، فلا يخلص الأمة المكبلة بأصفاد الاستبداد إلا العقلاء الذين يشترون السعادة بشقائهم والحياة بموتهم .

ويختم كتابه « طبائع الاستبداد » بفصل يشرح فيه كيفية التخلص من الاستبداد فيرى أن الاستبداد لا يقاوم بالقوة إنما يقاوم باللين وبالتدريج ببث الشعور بالظلم ، وذلك يكون بالتعليم وإقناع الرأى العام ، وذلك لأن الاستبداد تحرسه قوات كثيرة: قوة الجند ،وقوة المال ، وقوة رجال الدين وقوة الأغنياء ، فإذا وجه بالقوة كانت فتنة تدمر الناس ، وإنما الواجب المقاومة بالحكمة فى توجيه الأفكار نحو إقامة العدالة والاستبداد برغم اعتماده على هذه القوات كلها يضعف أمام الوسائل المحكمة ويقول :

لا يعتبر المستبد بعظيم قوته ومزيد احتياطه، فكم من جبار عنيد جند له مظلوم صغير ، ويشير إلى ترتيب المقاومة والاستعداد الفكرى وتعميمه وذلك بإشعار الأمة آلام الاستبداد ودفعها إلى أن تحكم نفسها بنفسها وبذلك يتم السير الطبيعى لسنة الحياة .

* * *

وبينما الناس يعجبون بما ينشر من مقالات فى الجرائد والمجلات والندوات الأدبية عامرة بأحاديثه العذبة إذا بالصحف المصرية تنشر نبأ موته الفجائى يوم ٦ من ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هـ « ١٥ يونيو ١٩٠٢ » فبكاه كل محب لإصلاح المسلمين ، إذ كان يرى فيه رجلا رضى الخلق ، عف اللسان ، عف القلم ، نقى الضمير ، نبيل المقصد .


طَاغُورْ

ولد رابندرانات طاغور بكلكتا فى ٦ من مايو سنة ١٨٦١ ، وهو سليل أسرة هندية كريمة المحتد ،كان أبوه « ماهرش دفندرانات طاغور» زعيماروحيا جليل الشأن ذائع الشهرة . وتلقى « ربندرانات » العلم بالبيت على أيدى معلمين خصوصيين ، كما جرت عادة كبار القوم الأثرياء فى ذلك الحين فى تربية أبنائهم ، وأرسل فى السابعة عشرة من العمر إلى انجلترا ليدرس القانون ، ولكنه لم يمكث بها طويلا ، وعاد إلى الهند وأخذ يكتب المقالات الأدبية ، وينشر بالمجلات البنغالية ، ونظم فى الثامنة عشرة قصيدة عنوانها « أغانى الغروب » وأتبعها بقصيدة أخرى عنوانها « أغانى الشروق» وصل بهما إلى ذروة رفيعة من الخيال وحسن الأداء فى النظم البنغالى الحديث .

وتزوج فى سنة ١٨٨٤ من سيدة فاضلة ، ورحل إلى بلدة « شيليدو » على ضفاف الكنج ، كى يدير ضياع والده ، وهناك عرف الشعب والفلاحين ، وما بهم من فقر ولمس شقوتهم وخشونة عيشهم وامتهان كرامتهم ، وأخذ ينظم القصائد ، وينشر القصص والمسرحيات ويؤلف الأغانى الموسيقية ، ومن أروع ما أخرجه من مؤلفات « الهلال » و« جيتانجالى » إلى أن تتابعت عليه الفواجع الهائلة فى أسرته ، إذ فقد فى تتابع سريع زوجته وابنته الكبرى وابنه الأصغر ، ورأى أن يرحل عن بلدته ، كى يخفف بعض آلامه النفسية ، فأسس سنة ١٩٠١ فى « بلبور » مدرسته التى أطلق عليها اسم « فسوابارانى » ، التى ما لبثت أن ذاعت شهرتها فى جميع أنحاء العالم ، وصارت معهداً عاليا للدراسات الشرقية بنوع خاص .

ولقد اتخذ هذا المعهد العلمى العبارة التالية شعاراً له « هنا يلتقى العالم فى صعيد واحد » ، وقال فى ذلك طاغور : « لقد جعلت « فسوابارانى »

« مدرسة يلتقى فيها الطلاب من ذوى الحضارات والتقاليد المختلفة ، ليتعلموا العيش معاً وقد سمى معهده هذا « القصيدة الرائعة » وأنشأ طاغور فى هـــذه المدرسة أقساما مختلفة تتمثل فيها أهداف مدرسته ومن بين أقسامها قسم للدراسات الصينية وآخر للدراسات الهندية وقسم للثقافة الإسلامية الذى أسسه على أثر زيارته لإيران .

وفى سنة ١٩٢٢ أسس طاغور مدرسة « سرينيكيتان » لتعمير الريف ، وسعى طاغور أن يكون معهده هذا مصدراً لا لجلب المال فقط إلى القرى المحيطة به ، بل لكى يوفر لأهل هذه القرى متعة الحياة وسعادة النفس وسعة العيش .

والمبادئ الأساسية فى فلسفة طاغور التربوية هى :

١ — الحرية .

٢ — التعبير الذاتى الخلاق عن طريق الفنون والأعمال اليدوية .

٣ — الاتصال الروحى الفعال بالطبيعة .

٤ — الارتباط المباشر بحياة المجتمع .

يقول طاغور : « إن أسمى ألوان التربية هى التى لا تقدم لنا المعلومات فحسب، بل التى تجعل أيضاً حياتنا متآلفة مع وجودنا بأكمله . لهذا يجب أن تسترشد مدارسنا بروح المحبة . فالمحبة والعمل هما السبيلان الوحيدان اللذان يمكناننا من الحصول على المعرفة السليمة الكاملة . إن واجب كل إنسان أن يحذق على الأقل وإلى حد ما ، لا لغة الفكر وحدها ، وإنما لغة الفن أيضاً التى هى التعبير الكامن عن الشخصية ، إن صرح التربية يجب ألا يكون فى صنع المعلمين والمشرفين على المدارس وحدهم ، بل من صنع التلاميذ أيضاً .

إن مركز ثقافتنا يجب ألا يكون مركز الحياة الذهنية فقط ، بل ينبغى أن يكون مركز الحياة الاقتصادية أيضاً .

يجب ألا تتحدد التربية من عناصرها القومية الأصـيلة والحياة العادية للأمة .

إن المرء الذى يفقد روح الطفولة فى ذاته لا يصلح إطلاقاً للقيام بالمهمة السامية ، ألا وهى تعليم الناشئة من بنى الإنسان .

وقد تركز هدف مدرسة طاغور وعنايتها فى تنظيم بيئة المدرسة والمناهج التى تدرس بها بحيث يكونان على نحو يقيس روح الحياة فى أنصع وأنق وأعم صورها » .

وقد ألف طاغور أكثر من ستين كتاباً ، ونظم كثيراً من القصائد الرائعة التى يشيع فيها جمال الكون وحب الطبيعة وإدراك الله والتزام البساطة . وترجمت بعض كتبه وقصائده من اللغـة البنغالية إلى اللغة الإنجليزية ، فأقبل القراء الأوربيون والأمريكيون على مطالعتها وتذوق حسن بيانها وروعة أسلوبها ، كما ترجمت بعض كتبه إلى اللغة العربية . ومنح سنة ١٩١٣ جائزة نوبل للآداب ، فاستخدم قيمتها التى كانت يومئذ ثمانية آلاف جنيه فى توسيع مدرسته ، وإدخال كثير من التحسينات عليها .

كما شغلت الموسيقى جانباً من وقته ، وألف فيها ووضع ألحاناً لأكثر من ثلاثة آلاف أغنية هندية ، وعنى فى أخريات أيامه بالتصوير ، وعرض صوره الزيتية فى موسكو وبرلين وميونخ وباريس ونيويورك ، وزار أوربا مرات عديدة ، كما زار الولايات المتحـدة الأمريكية وأمريكا اللاتينية واليابان وإيران وكندا والصين :

ولم يعن طاغور كثيراً بالشئون السياسية إلا فى النواحى التى مست

الحياة الهندية الروحية ، وناشد زعماء الحركة الهندية أن يولوا الإصلاحات الاجتماعية المزيد من اهتمامهم وعنايتهم ، وقد نادى فى كتاباته بأن الكون واحد لا يتجزأ ، وأن الأمم جميعاً وإن اختلفت مذاهبها وتعددت لغاتها وتناحرت مصالحها ، فهى جميعاً أبناء الله الواحد الأحد .

وفى سنة ١٩٤١ اجتمع الناس لتكريم طاغور ، ولكنه كان فى حال من الوهن لا تسمح له بمقابلة الناس ، وفى أغسطس من تلك السنة أسلم طاغور الروح ، والتقى المحدود بغير المحدود إلى النهاية . .

* * *

كان مفهوم الحرية عند طاغور أنها للجميع على السواء ذكورا وإناثا بغض النظر عن طبقاتهم وأديانهم وأجناسهم وألوانهم ، ولعل هذا هو السبب فى أنه فى المرحلة الأولى من كفاح الهند من أجل استقلالها وعلى وجه التحديد فى الفترة الحاسمة التى صحبت الاضطرابات العنيفة والانتفاض اللذين سادا ضد تقسيم البنغال قد رفض الانضمام إلى هذه الحركة ، إذ كان يؤمن إيماناً عميقاً بأن كيان حركة استقلال الهند ستقوم على جرفٍ هار ، إذا لم تعمل عملا إيجابيا فى الوقت نفسه للقضاء على الظلم الاجتماعى والاقتصادى فى المجتمع ، تلك المظالم التى تتمثل فى قضية المنبوذين وزواج الأطفال وإنكار حقوق المرأة وما شابه ذلك من المظالم .

هذا النقص الذى أحس به طاغور فى الحركة الوطنية قد أمكن علاجه عندما انضم غاندى ونهرو إلى المؤتمر الوطنى الهندى وانتقلت قيادة الحركة السياسية إليها ، آمن طاغور أن حلمه وأمله فى قيام الهند الحرة سوف يتحقق ، وأن شعبه سيتمكن من الكشف عن تراثه ، ونتيجة

لهذا الإيمان أصبح من المؤيدين للمؤتمر الوطنى الهندى دون أن ينضم إلى عضويته رسمياً ، ومهما يكن من شىء فإن أعظم ما أسهم به طاغور فى الحركة الوطنية الهندية يتمثل فى كتاباته سواء أكانت شعراً أم نثراً أم أغانى تثير حماس الشعب .

يقول طاغور على لسان بطل قصته « جودا » :

« أنا اليوم هندى بحق ، هندى قد خلت نفسه من كل شحناء أو فرقة بين الهندوكى والمسلم والمسيحى ، كل ملة فى الهند اليوم هى ملتى ، فدعنى اليوم أنشد صلاتى وترانيمى للاله الذى هو إله الجميع على السواء هندوكيين ومسلمين ومسيحيين وبراهيمين ، الإله الذى ليس للهندوكيين فحسب ، وإنما هو إله الهند نفسها كلها .

ويقول فى رسالة إلى المجاهدين من أجل الحرية :

أيها الام الفتية هبى وأعلنى صيحة الجهاد من أجل الحرية .

وارفعى راية الإيمان الغلاب الذى لا يقهر :

وأقيمى من حياتك معبرا يرأب صدع الأرض التى مزقتها .

الأحقاد والإحن .

ثم سيرى للأمام . .

ويجدربنا أن نذكر نشيده المشهور « جاناجانا مانا » نشيد الصباح للهند ، وهو النشيد الذى اتخذته الهند نشيداً قومياً لها ، والنشيد يقع فى خمسة مقاطع أولها وهو الذى اتخذته قوات الدفاع نشيداً لها .

يقول طاغور :

مولاى إنك أنت المسيطر على عقول الشعوب جميعاً .

وأنت المتصرف وحدك بمصائر الهند .

اسمك إذا ذكر تحركت له القلوب فى البنجاب والسند .

وفى جوجارات وموثا ودارفيد وأوريا والبنغال .

وتردد صداه فى تلال فندهياس والهملايا .

ورجعت موسيقاه فى خريرها أنهار جومنا والكنج .

وأنشدته أمواج البحر الهندى فى مدها وجزرها .

إنهم جميعاً يصلون لك لتصلهم بركاتك وتحل عليهم نعمك .

إنهم جميعاً يلهجون بالحمد لك والثناء عليك .

أنت أيها المتصرف وحدك فى مصائر الهند .

النصر لك ، النصر لك ، لك وحدك .

إن المثل الأعلى الذى كان ينشده للهند الحرة ، والذى كان ينشده لكل قطر من أقطار العالم قد عبر عنه بقوة وروعة فى الأبيات التالية من مقطوعته الشعرية « جيتنجالى » :

إلى حيث ينطلق العقل فى غير ما خوف ، ويرتفع الرأى فى عزة

وتصبح المعرفة مباحة .

وحيث لا يتجزأ العالم إلى أقسام تفرضها حدود محلية ضيقة .

وحيث تصدر الكلمات نابعة من أعماق الحق .

ويتجه السعى الدائب الذى لا يفتر بكليانه إلى تحقيق الكمال .

وحيث لا يفقد مجرى العقل الصافى طريقه ويتحول إلى الصحارى الرملية الجدباء بتأثير العادات الميتة .

إلى حيث تقود أنت يا إلهى العقل إلى الفكر المتسع الآفاق أبدا .
والعمل المستمر فى جنة الحرية هذه ، ياربَّاه أيقظ أمتى ودعها تنهض .

* * *

ولم يكن « طاغور » من سكان القصور العاجية ، حتى لو أراد هو أن يكون كذلك فلم يكن فى استطاعته أن يتنصل من التبعات الثقيلة الملقاة على عاتقه عقب وفاة جده الأمير « داود كانات » فجأة ، وكان « داود كانات طاغور » قد أثرى فى ظل شركة الهند الشرقية ، وصار فى حوزته ضياع وثروة هائلة ، وسمى « أميراً » من باب الاحترام ، ولم يكن ابنه معنياً بأمور الدنيا ، وكان مستغرقاً فى الأمور الروحية إلى حد أن أطلق عليه اسم ماهارش ، وكان أصغر أبناء ماهارش طاغور هو الشاعر الذى وقع على كاهله أمر الإشراف على الأموال والأراضى التى كان يمتلكها الأمير « داور كانات » .

وكانت الأسرة تمتلك أرضاً فى « شليدة » الميناء النهرى الذى يقع على شاطىء نهر « بادما » وفى ذلك المكان قضى الشاعر وزوجه وأطفالهما الخمسة ، ثلاثة بنات وولدان أسعد سنوات حياتهم .

وكان طاغور يحب رحلاته فى نهر بادما ، وقد ألف كثيراً من أغانيه على ضربات المجداف الرتيبة التى كان يضربها فوتيه . ولكى نفهم القاعدة التى يقوم عليها شعره وقصصه القصيرة ومسرحياته ورواياته ، ينبغى أن نتذكر أنه كان على اتصال وثيق بالحياة .

يقول « رابندرانات طاغور » (نجل المترجم له) :

« البنغال مليئة بالأنهار ، وشعبنا يحبها حباً صادقاً ، وحين يجلس الإنسان جلسة الاسترخاء فى القارب فإنه لا يمل قط من التطلع من خلال

النوافذ إلى مناظر الحياة الريفية التى تتبدى فى أشكال لا نهاية لها . فهؤلاء طائفة من النساء قد رفعن على أردافهن جرارهن فى رشاقة بديعة يأتين هابطات جبال الغات ، وهؤلاء أطفال يسبحون فى النهر مرحين يتراشقون بالماء . والصيادون منهمكون فى صيد السمك بحيلهم البارعة التى لا حد لها ، والفلاحون يحملون محصولاتهم فى القوارب حتى تكاد حوافها تلمس الماء ، والطائر صائد السمك واقف فى سكون على طرف عود من الغاب الطويل ، على استعداد للانقضاض على فريسته حالما يقع بصره عليها ، حياة من العمل والسكون والسعادة تمتد خلال القرون دون أن يتغير فيها شىء أو يفسدها شىء » .

بيد أن هذه السعادة التى استمتعت بها أسرة طاغور سرعان ما غشتها الأقدار ، إذ مرضت زوجته مرضاً خطيراً ، ثم ما لبثت أن ماتت .

وقد كتب الشاعر عن وفاتها مجموعة من القصائد بعنوان « الذكرى » تعطى فكرة واضحة عن مدى الألم الذى كان يشعر به فى ذلك الحين :

« إن بيتى صغير

وما فقد منه هيهات أن يعود .

ولكن بيتك يا إلهى بلا حدود .

وحينما ذهبت أبحث عنها قادتنى إلى بابك خطاى »

ولم تمض إلا فترة قصيرة حتى أصيبت ابنته « رانى » بالسل وماتت بعد أمها بتسعة شهور ، ثم توالت النكبات على الشاعر فمات ابنه وابنته ، وفى أثناء هذه الكوارث لم يكن الشاعر يقوم بشئونه العملية فحسب ، بل كان يكتب على الدوام .

* * *

كان طاغور هاوياً من حيث التدريب الفنى على التصوير ، وتكاد تكون صوره كلها مرسومة بالقلم ، ويظهر قلم حبر فى العادة ، وبالحبر الملون أو بالتظليل ، وقدبدأت رسومه بداية متواضعة على شكل محاولات لتجميل ماتحتويه مخطوطات كتبه من شطب و تصحيح ، تحدوه إليها حاسة الإيقاع

يقول طاغور : « لقد انتهى بى الأمر إلى العلم بأن الإيقاع يضفى حقيقة على ما هو مفكك عديم الأهمية فى ذاته . لذلك راحت الخدوش التى فى مخطوطاتى تصرخ كأنها الخاطئون الأثمة يطلبون الخلاص ، وتؤذى عينى بقبح نشازها ، كنت فى أكثر الأحيان أبذل من الوقت فى سبيل تخليصها والوصول بها إلى نهاية رحيمة من الإيقاع أكثر مما أبذل فى المضى فى مهمتى الأولى الظاهرة »

ولعل طاغور نفسه وهو يؤكد أهمية عاملى الإيقاع فى رسومه التى بدأت بهذه المحاولات لم يشعر بالمدى الحقيقى للرسوم التى ابتدعها ، فقد كتب يقول :

« إن صورى هى نظمى للشعر فى خطوط ، فإذا حالفهما الحظ وأصبح لها الحق فى أن تطالب بتقدير الناس لها ، فلابد أن يكون مرجع هذا أولاً ما فيها من دلالة إيقاعية للشكل هى دلالة نهائية لا أى تفسير لفكرة أو تمثيل لحقيقة » .

وأهم آثار طاغور الشعرية ، قربان الأغانى وبستانى الحب ، والقمر المهل ، وسلة الأثمار ومجموعة أناشيد وجدانية نظمها بين سنتى ١٩٠٧ و ١٩١٠ لايضبطها وزن ، ولا يربطها تأليف وانما تجرى فيها روح هيام صوفى وهبوة تائه غريب وأمل لقاء دان .

يشتمل معظمه على آراء فى الشاعر ورسالته فى الحياة ، وعلى حكم وشعر وأمثال . أما الأناشيد الأخيرة فيه فقد خصصت بوداع الحياة .

الشاعر انعكاس الألوهة على صفحة الكون ، ولولاه لما أحب الله ، ولما أحسن الخليقة ، ولما أحسن نفسه :

« والشاعر قيثارة الألوهة ، فيها تنفخ النغم ، ومنها تتعالى مثقلة أبالحب ، طافحة بالحنين ، تواقة إلى التلاشى فى غمر الأغنية العظمى غنية الأبدى .

والشاعر حبيب واحد ، يرقب الطرق ، وينوع الأناشيد ، يسهر الليالى ويعانى الظلام . يسهر ويغنى منتظرا هبوط الحبيب فى موج من النور ، ودفق من الهناءة .

والشاعر روح غارقة فى جسد ، مقيدة بأهواء ، يطغى عليها الطموح ، ويستأثر بحبها الناس ، وتغريها بهرجة الأشكال .

وإنها لفى جهاد شاق ، وعناء مؤلم ، إلى أن تتحرر من كل شهوة ، وكل شكل ، وكل لون جذاب ، وتغادر هذه الحياة لتغوص فى قلب الحياة الشاملة ، وتلق الألوهة وجهاً لوجه ، فى بهجة الصباح الأسنى .

« اجعلنى شاعرك أيها الليل ، أيها الليل المقنع . .

إن ناسا كثيرون قضوا فى ظلامك أجيالا صامتين ، فدعنى أرتل أغانيهم .

خذنى فى عربتك وانطلق فى غير ما جلبة من دنيا إلى دنيا . أنت يامليكا فى قصر الزمان .

أنت أيها الجمال المظلم .

ياإلـه الهيكل الخرب . إن أوتار العود المقطوعة لن تعزف تسابيحك أجراس السماء لن تعض ساعة عبادتكم ، والهواء سيلفك بصمته ..

إن منزلك الموحش يلجه نسيم الربيع الشريد ، إنه ينقل إليك أنباء عن الزهور ،زهور لم تقدم بعد إكراماً لك .

عابدك القديم تائه أبدا مشتاق أثر نعمة ممنوعة ، وحين يحل المساء ، وتمتزج — الأنوار والظلال فى عتمة النفس والغسق ، يعود حزيناً إلى هيكلك الخرب ، والنور فى قلبه .

كم عيد لا يحمل إليك سوى الصمت ، ياإلـه الهيكل الخرب .

كم ليل معد لعبادتك ينقضى ولا يشعل فيه مصباح .

كم رسم جديد أبدعته يد الفنان الماهر ، وجرفه تيار النسيان المقدس، عندما حان الوقت . أما أنت ياإلـه الهيكل الخرب ، فتبقى على الدهر مهملا غير مصبور .

« اللهم أرهف حواسى ، ومرغها فى عالمك هذا ، موطىء قدميك ، تحية لك ، كغيم يوليو الماطر ، ينوء بالمزن المحبوس .

لأخفض رأسى على بابك تحية لك ، لتأتلف كل نغمات أغانى لحنا واحدا ، يغور فى يم الصمت ، تحية لك ، كسرب من الرهو ، ألح عليه الحنين ، فآب إلى أعشاشه الجبلية طائر لا ينام ، لأرحلن بحياتى إلى مقرها الأبدى تحية لك »

وبستانى الحب ، ديوان يتضمن خمسة وثمانين نشيداً كتبها طاغور أولا بالبنغالية ثم نقلها إلى الانجليزية محتفظا لها بشفافيتها وعذوبة الأسلوب .

فى هذا الديوان يظهر طاغور كأنه طفل سماوى يلثغ كالأطفال ويصبو إلى العلاء فاتحاً ذارعيه للإنسانية جميعا بموتها وحياتها ومختلف كائناتها يريد ضمها إليه والذوب فيها .

لقد خبر بطلان الحياة فانصرف عنها وراح يناجى حبيبته فيود

لو تجتاحه العاصفة تأخذ ماله ، وتسلبه أحلامه ، وحياته لأن فى هذا السلب والتجريد تنمو نفسه بالكائن الجمالى الموحد .

فشوقه الأرضى باطل ولا أمل له بالوصول الكلى إلا مع الله .

إنها النفس البشرية القلقة فى عالم التراب تسمو إلى اللا محدود ناسية ألا جوانح لها لتطير ، وانه مقضى عليها أن تلازم التراب .

إنه الشاعر الغريب فى بلد غريب يسمع النداء البعيد ، نداء الغيب فيصرفه قلبه لكأنه صادر عنه . يهب لتلبية النداء ذاهلا عن جهله الطريق فيسوده قلق شديد شعر أنه غريب حتى عن قلبه .

إنه العصفور الطليق الذى يخشى ألا يجد فى القفص فسحة كافية لينشر جناحيه بقدر ما يخشى أن تسد أبواب القفص .

يحاول أن يقبض على الجمال فيفلت فيه فيواصل طريقة مخيب الآمال واهيا .

أما القمر المهل : فحكاية ذلك الطفل الذى ترك الحرية فى المطلق قبل الوجود ومؤثرا عليها قلب أمه . إنها مفاجأة ندية فيها نقد لاذع لأولئك الذين يعكرون صفاء الطفل لتفاهات صغيرة كمثل اتساخ ثوبه كأنما نقطة حبر تسئ إلى البدر .

لا تعبأ ياطفلى بما يقولون عنك .

إنهم يعدون قائمة طويلة بأخطائك .

ألهذا يدعونك جشعاً ؟

ويحهم بماذا إذن يدعوننا نحن الذين نحبك ؟

وفيها خواطر طفل يحلم فى مشروعات ينبغى تحقيقها لعلها خواطر طاغور نفسه وقد تميزت بتعلق فطرى بالطبيعة إلام وبايثار صريح لحياة الحقل على حياة المدينة المصطنعة .

على شاطئ العوالم اللامتناهية أطفال يحشدون والفضاء الساكن يمتد رحباً فوق رءوسهم والقمر المائج لا يقر له قرار على شاطئ العوالم اللامتناهية أطفال يحتشدون ويهتفون ويرقصون . يبنون بيوتهم من الرمل ، ويلعبون بأصداف فارغة من الأوراق اليابسة سووا مركبا . ورموه باسمين اليم العميق . الأطفال يلعبون على شواطىء العوالم »

أما سلة الأثمار فهى بجموعة أمثال وخواطر تفيض بالنغمة الصوفية :

« انتفخ جناحا الشاعر بشوقه إلى السماء فأمل نفسه بلقيا النجم فى منتصف الليل ليغوص فى بعد ، فى الظلمة العميقة أو يشابه الغيم الذى تتقاذفه عواصف الصيف .

فيها حرقة الإنسان الراسف فى قيوده الترابية يتوق إلى العتق .

ولكن كيف يستطيع هذا العبد أن يعتق وهو لا يقوى على أن يفتق زهرة ، إن حسه بقصوره يدفعه إلى التماس العون الإلهى . أضيئى أيتها النار الإلهية قنديل الأرضى الذى غمره الغبار » .

إنه الكائن المغلوب على أمره العاجز أمام قدره يدرك أن ليس له أن يغلبه ولا أن يخرج من الصراع وعلى هذا يغوص فى الهاوية حتى قاعها ويلعب لعبة انهزامه .

« سألعب بكل ما أملك وعندما أخسر كل شيء حتى ذاتى عينها لعلنى أكون قد غنمت كل شيء عبر تجردى التام » وقصاراه أن يضع أمام قدمى ربه كل ما يملك لعله ينال مقاماً فى ملكوته .

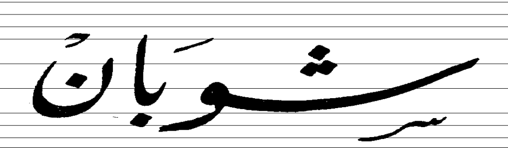
وللحب فى هذا الديوان منزلة كبيرة ، لكنه حب صاف لا يشوبه شهوة حس يرومه الشاعر سبيلا للاتصال بالحب الأسمى ليبتعد عن ذلك الحب الذى لا يعرف الاعتدال ، إنه كالنبيذ الذى يفيض عن الكأس فيذهب هدراً ، أرسل إلى الحب الذى يملأ القلب سلاما .

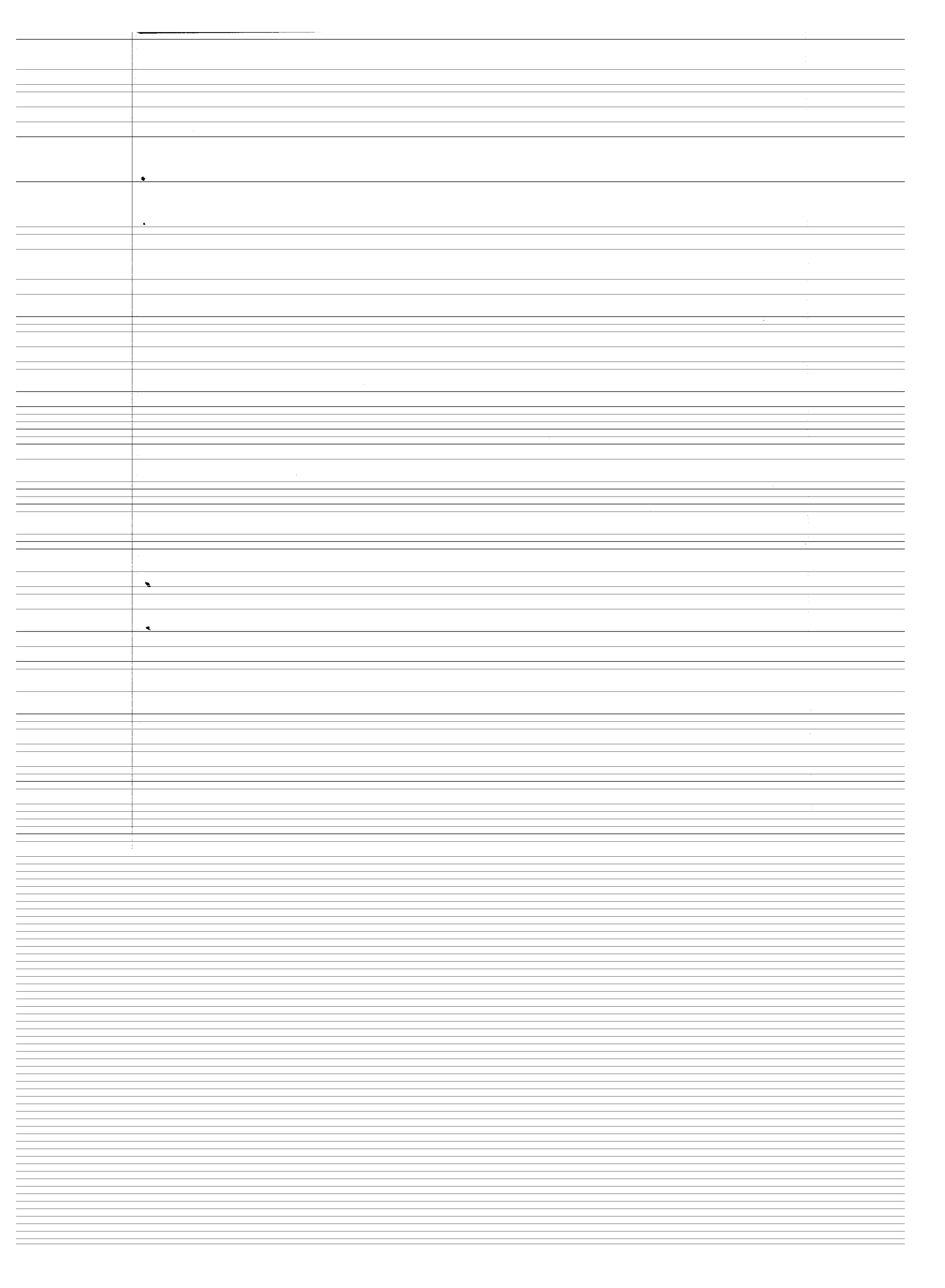
ويبقى القلق إلى المعرفة . فالكائن الترابى يود لو يدرك قبل أن يودع الحياة لما ذا جاء إليها .

ويشتد قلقه ويعييه الجواب .

إن شعر طاغور زاخر بالصوفية ، ولكن صوفيته خلو من كل صفحة قاتمة تورث التشاؤم ، إنها روحية بناءة تساعد الإنسان على الاتصال بالحق المطلق . .

إن كل أشعار طاغور وقصصه تعبر لنا عن تلك الروح الإنسانية التى انبعثت من الهند لتتغنى لنا بأناشيد السماء .





فى ٢٢ فبراير سنة ١٨١٠ وفى بيت ريفى فى قرية « ريلازو فافولا » ضاحية مدينة وارسو فى بولونيا ، ولد فردريك شوبان ، وقد أحاط من الموسيقى بالأرقام الكافية للتعبير عن عواطف وخلجات نفسه ، وهو يعد فى السادسة عشرة من عمره ، ولم يعد يقلقه إلا البحث عن أسلوبه الشخصى ، لأن هذا الكائن لا يفهم إلا ما هو متحد بذاته . . .

وسمح له والده بمغادرة المدرسة ليقف حياته على الموسيقى . . . فأقام له فى البيت غرفة صغيرة أثاثها معزف بيانو المدرسة عتيق ومنضدة هرمة ، وفى هذه الغرفة سطر آثاره الأولى . . ومنذ ذلك الحين أخرج ما شغل الدنيا كلها بأسلوبه المتجدد الرائع . .

أراد شوبان أن يرحل إلى فينا وقبيل رحيله اجتمع عنده بعض رفاقه يودعونه فعزف لهم ، وحين سئل بعد عزفه على البيانو قطعة تقطر دماً ، بمــاذا يسمى هذه القطعة . أجاب بهذه الكلمة البولونية ،كلمة طالما رددها وأحبها لأنها تعكس روح الثورة والمرارة والانتقام حيناً ، وعاطفة الحنان والحب والرقة حيناً ، وفى نهاية اجتماعهم كانوا يغنون له . .

بألحان موسيقاك وألحاننا . .

عن مجد وطنك وشعبك .

واعلم ياشوبان بأنك تعلى مجد بلادك بأنغامك . .

وفى يونيو ١٨٢٩ رحل شوبان إلى فينا وبعد عدة أسابيع من رحيله جاءت إليه الأنباء تترى عن وقوع أحداث كبرى فى وارسو . . . فهذا الشعب المجيد كان يحاول المرة تلو المرة أن ينفض عن كاهله ثوب العبودية ، وهذه إحدى المرات يبذل فيها الروح والمــال طلباللحرية والحياة الكريمة ،

فتمثل شوبان وطنه وقد أصبح طعمة للنيران ، وأهله وعشيرته فريسة للغاصبين ، فكتب إلى والده خطابا يقول فيه « ... الحياة والموت أصبحا سواء عندى ، فلماذا أعيش هكذا بعيداً عنكم لم لا أقيم بينكم متحملا نصيبى من الجهاد والكفاح ؟ » .

وفى رسالة أخرى يقول :

« لقد أعددت نفسى للتضحية بكل شىء فى سبيل شعبى ، فمن أجل بولونيا وحدها سأكافح » .

وبهذه الروح الثائرة التى لا ترضى السكينة ، انطلق « شوبان » يحقق ما آمن به ، وبعزيمة صادقة وإرادة صلبة وقلب مطمئن أخذ ينتج ويبدع .

وقبيل مغادرته فينا إلى براغ تلقى من صديق له فى بولونيا هذه الرسالة :

« ضع بولونيا نصب عينيك ، وطنك ثم وطنك دائما . قد تكون هذه الكلمة خالية من المعنى عند الفنان العادى ، بيد أنها ذاخرة بالمعانى عند من أوتى عبقرية مثلك . هناك معزوفة وطنية كما أن هناك مناخا وطنيا . فالجبال والغابات والحياة والمروج لها أصواتها والوطنية الخاصة بها .. وفى كل مرة أفكر تهتز نفسى طربا لرجائى فى أن تكون أكبر ممثل لموسيقانا « السلافية » فابحث عن مقطوعاتنا الخاصة بنا كما يبحث الجيولوجى عن الحجارة والمعادن فى الجبال والأودية ، وقد قيل لى انك تشكو السأم فى غربتك ، ولا تقى الضعف فى جسمك ، فاعلم أنه لا يوجد بولونى واحد يمكنه أن يعيش حياة هادئة ، بينما وطنه يحكم عليه بالموت أو الحياة . وتذكر أنك لم تسافر لتضعف جسمك ، ويشحب لونك ؛ ولكن لتكمل نواحى فنك ، وتغدو العزاء والمجد عند شعبك ووطنك .

وعندما تلقى شوبان نبأ سقوط وارسو فى أيدى القوات الروسية هزه النبأ الفاجع وأكب على البيانو يعزف القطعة المعروفة التى سميت « الثورة » .

رحل شوبان إلى باريس بعد أن تنقل فى أكثر المدن الألمانية .

وفى مساء ٢٦ من فبراير ١٨٣٢ وكانت العيون تتبع شابا قويا يرتقى المدرج إلى البيانو ، وكان بين الحاضرين فرانز ليست ، وعندما ساد السكون بدأ شوبان يمر بأنامله على البيانو برفق ورقة فتصاعد من الآلة صوت لم يسمعه من قبل إنسان حتى خيل لكل فرد أن الصوت يتفجر من أعماق نفسه هو ، إنهم يسمعون نشيد الحياة وأهازيج النصر والحرية .. حتى قيل إن شوبان قد قبس من أرض وطنه خاصة الإيقاع الثورى العنيف إلا أن الشخص حين يستمع إلى موسيقاه يحس أنه ليس أمام بيانوا من خشب وإنما هو أمام نفس تملق ، وثورة تتأجج ، ومنذ تلك الليلة بدأت صداقة متينة بين ليست وشوبان .

كان «شوبان» يموت كل يوم من أيام حياته ، لأنه على الرغم من شهرته الواسعة التى طبقت الآفاق ظل يشعر بالوحشة والحنين إلى وطنه ، ولم يستطع أى حب ولا أى جمال أن يثنيه عن تذكره بلاده ، فظلت بولونيا ينبوعه الحى ، والمنهل الذى يأخذ منه صورة عواطفه والإيقاع الفنى الذى يستمد منه ألحانه العبقرية الخالدة . .

كان ابتكاره خلاقاً فياضا يأتيه حيناً إثر نزهة يتخيلها بين ربوع قريته أو ساعة تأمله لحياة شعبه المناضل ، أو يهبط عليه وهو يمر بأنامله على البيانو بقوة وعنف ، فيعزف اللحن ويعاوده حتى يستقر لحناً واضحاً ، وأحيانا كان يغلق باب الغرفة على نفسه أياما عديدة يبكى ، ويحطم أقلامه ويعيد ويمحو منه مرة ، وهكذا كان يعمل ويحلق فى الآفاق الرحبة . .

لقد كان شوبان يتخيل وجوه السلافيين وهم يقاومون الظلم والعدوان ، ويمتد السكون المشبع بالحنين إلى الوطن ، ثم يستوى جالسا أمام البيانو ، فيبدأ بنغمات رشيقة تنزلق على أنامل البيانو بطريقته المألوفة ، حتى يصادف النغمة التى تبدو أكثر ملاءمة للجو الذى هو فيه من ثورة وتحفز واندفاع وإذ ذاك ينقض على إحدى مقطوعاته المفضلة التى يسميها أحد مواطنيه « سبيريا » لأنها ترمز إلى وعثاء ونصب المنفيين البولونيين ، فترى الثلوج تتساقط على السهل المترامى الأطراف وتسمع رنين أجراس العجلات المنزلقة التى تقترب وتنمو ثم تتغلغل من بعيد ، وكان كل واحد من السامعين يرى أخا أو صديقاً يمر أمام مخيلته محاط بجنديين روسيين يقودانه فى رحلة طويلة إلى الأبد .. ويبدع شوبان فى تصوير ذلك إبداعا عبقريا ، حتى يحس السامع أن عليه واجباً لامناص منه يدعوه للاشتراك فى الثورة وتحقيق النصر لأمته المجاهدة . ويشعر الإنسان بأن شيئا فى حياة شوبان يسيل مع نغماته فى أشياء تتفجر من صميم واقع أمته ونضال شعبه . . .

يقول الفيلسوف « نيتشه » : « كل موسيقى تبتدىء بأن تحتوى على تأثير سحرى إلا منذ اللحظة التى نسمع منها لغة ماضينا ، ولهذا كان شوبان المنفى لا يسمع إلا الأصوات القديمة التى تخامر ذاكرته ، ومن هنا كانت عبقريته .

وكان شوبان يجنح إلى الرومانتيكية ، بيد أنه كان يمت بصورة خاصة إلى مدرسة هذين العلمين ، باخ وموزارت ، أما باخ فكان يعجب به إعجاباً فائقاً ، وأما موزارت فكان يجد عنده مبادىء الحريات كلها فينهل منها بنهم .

وكانت سنة ١٨٣٩ بصورة خاصة سنة ميلاد « مقدماته » وهى أروع

وأعظم ما أنتج شوبان ثم تأتى السنوناتا الرائعة ، التى قال عنها شومان ، « عبقرية قاسية تلفح وجوهنا وتلقى بقبضتها الثقيلة على الأرض كل من سوّلت له نفسه أن يجمع أمامها » .

وفى رسالة إلى ذويه يقول : « إن هذه الموسيقى تصلكم بى وطالما أننى أعزفها أشعر بنشوة عميقة » .

وكانت سنة ١٨٤٨ سيئة على الفنانين ، وأسوأ أكثر على شوبان ، لأنه كان يحمل بين جنبيه الجراح التى تنزف دماً ويعانى داء السل الذى لم يعد يجدى الكفاح معه ، وكانت الثورة فى بولونيا على أشدها فقرر أن يغادر فرنسا ويجوب أنحاء انجلترا ليقيم الحفلات ويزود بريعها الثورة الحقة فى وطنه .

وذات مساء عاصف قالت له صديقته قبل أن يخرج ليحيي حفلة يرصد ريعها لتغذية الثورة البولونية : إنك فنان وهبك الله شيئاً من نعمته فكيف تبددها هكذا بلا معنى ؟

فأجابها بهدوء ، أتعنى كونى فناناً أننى لست إنساناً ، اسمعى ياصديقتى إننى أكثر أبناء شعبى مسئولية عن مصير شعبى ، وما وجدت هذه الأصابع إلا لتبعث اللهب فى سبيل الحرية .

ولم يركن شوبان إلى الهدوء بل لم يرحم نفسه من كثرة العناء والعمل وإقامة الحفلات ، ولكن هذا الرجل الذى كانت زهرة شبابه تذوى شيئاً فشيئاً مضى فى عمله فراح ينتقل من مسرح إلى آخر يعزف ويجمع المال لأبناء وطنه المجاهدين فى بولونيا .

وعندما كانوا يطلبون إليه الخلود إلى السكينة والراحة كان يجيب فى هدوء ونفس قوية : لن أفكر فى شىء وإنما كل تفكيرى يمتد إلى بيت أمى

وأبى وإخوتى وفنى الذى لا أدرى أى مصير قدر له ، وإننى يصعب علىّ أن أتذكر كيف يغنون فى بلادى ، وهل بعد هذا أستطيع أن آخذ قسطاً من السكينة والراحة » .

وامتد كفاحه فى سبيل أمته على أكبر مسارح أوربا ، وعلى أنغام « البولونيز » والسل يستل روحه رويداً رويداً . . فبرهن للعالم أنه يحيا حياته كأحسن ما يكون ، ثم خلدها كأروع ما تكون ، كان موسيقاراً عقائدياً منذ عرف معنى الحياة ، وكان يقول : إنه فنان يعزف بوحى من تراب بولونيا ، ومضى شوبان عن هذه الحياة الدنيا راضياً بعد أن سجل اسمه فى سجل الخالدين . .



جورج واشنطن

الرجل الذى وهب أمته الاستقلال والحرية والدستور .

الثعلب القديم الذى دوخ الإنجليز فى الولايات المتحدة .

المزارع الأول الذى أصبح المواطن الأمريكى الأول . .

هل تعرفه ؟

إنه جورج واشنطن . .

ولد جورج واشنطن فى فرجينيا يوم ٢٢ فبراير سنة ١٧٣٢ وبعد ثلاث سنوات من ولادته انتقلت أسرته من « وكفيد » إلى مزرعة « هنتنج كريك » التى تعرف اليوم باسم « مونت فرنون » ولبثت فيها مدة أربعة أعوام ، اضطرت بعدها إلى تركها ، لأن النار دمرت المنزل الذى كانت تسكنه ، وانتقلت إلى مزرعة « فرى » بالقرب من نهر « دابا هانوك » المواجهة لمدينة ففرد ريكسبرج » فى فرجينيا .

وقد بدأ جورج واشنطن دراسته الأولى بإشراف كاهن الرعية المحلى وحينما بلغ السادسة عشرة من عمره كان يقضى معظم وقته فوق صهوة جواده ، فدرس أحوال الغابات وتعرف إلى طرق الهنود وعاداتهم ، فنما قوى الجسم عظيم الشجاعة ، وقد استمر فى حياته كلها محافظا « على عادة التمارين الرياضية الحادة فى عهد شبابه عندما كان يروض أصعب الجياد عنانا ، ويجوب الغابات متقلدا بندقيته حاملا أدوات المساحة وسلاسلها ، وبعد مرور ثلاث سنوات على اشتغاله فى المساحة لدى لورد «فايرفا كس» عين ضابطاً فى إحدى المناطق العسكرية فى فرجينيا ، فأقبل على دراسة فنون الحرب والتمرس فى أصولها

وفى السنوات الثلاث التى تلت ذلك تولى واشنطن قيادة قوات

فرجينيا لحماية ٣٥٠ ميلا من الحدود ضد اعتداءات الفرنسيين وغارات الهنود الحمر الموالين لهم ، وفى شتاء ١٧٥٦ سافر إلى بوسطن على ظهر جواده لمقابلة الحاكم شيرلى الذى يشغل منصب القائد العام فى المستعمرات .

وفى مطلع سنة ١٧٥٨ اشتركت قوات واشنطن فى هجوم آخر على حصن « دوكيزن » الفرنسى ، فدكته دكا ، وبذلك تدرب واشنطن على طرق الحرب وأصبح مع الزمن أكثر الجنود الأمريكيين خبرة وقدرة .

واعتزل واشنطن منصبه فى الجيش وقصد إلى « مونت فرنون » ليعيش عيشة مزارع مسالم وديع طوال السنين الست عشرة التالية .

وفى يناير سنة ١٧٥٩ اقترن واشنطن بالسيدة « مرتا داندوج كوستيس » وهى أرملة وأم لطفلين هما جاك وباتس ، كما كان يسميهما توودا ، وبعد زواجه عاش واشنطن فى موطن زوجه بالقرب من « دليا مسبورج » وأقاما فى منزل تمتلكه مسز واشنطن ويعرف باسم « المنزل ذى المداخن الست » .

وانتقلا إلى الإقامة فى « مونت فرنون » مزرعة واشنطن الجميلة ، إن حبه « لمونت فرنون » وسروره بتحسينها والعناية بها يتجليان بكل وضوح فى مذكراته اليومية ورسائله وقد وفق مع الزمن إلى زيادة أملاكه حتى أصبح من كبار أصحاب الأرض فى البلاد كلها ، وكان من أعز أمانيه أن يصبح المزارع الأول فى أمريكا .

وأصبح واشنطن عضواً فى مجلس نواب فرجينيا مدة خمس عشرة سنة « ١٧٥٨ — ١٧٧٣ » ودعى أول مجلس كونجرس للاجتماع فى « فيلادلفيا » فى ٥ يوليو ١٧٧٤ ، وكان واشنطن أحد أعضاء وفد فرجينيا إليه ، ومع أنه لم يتكلم كثيرا . فقد نظر إليه الأعضاء على اعتبار أنه

أقوى الرجال الذين حضروا الاجتماع . إذ أصر على وجوب التفريق بين مصلحة فرجينيا وانجلترا . وبدأ له فى وضوح لا لبس فيه ولا غموض كيف يعمل المسئولون من رجال الإنجليز ضد بلاده ، فكرههم وبخاصة عندما رفضوا أن يمنحوا مقاطعته الاستقلال الذاتى ، وذلك لأن هؤلاء المسئولين كانوا ينظرون إلى المستعمرات على أنها مصدر الخير لهم . فقد كان التبغ يخرج من أيدى الزراع الأمريكيين إلى أيدى التجار الإنجليز ، وكانت الحكومة الإنجليزية تفرض مختلف الضرائب على مستعمراتها دون الرجوع إلى رأيها ، أو أخذ موافقتها ، ولم يكن واشنطن باعتباره من كبار الملاك من الذين يقبلون استمرار هذا الحال ، ولم تكن تدفعه إلى ذلك مبادىء معينة ، او آراء محددة ، إذ كان راضيا عن كل ما يحيط به فى فرجينيا إلا التدخل الإنجليزى ، ولم يكن يرغب فى الدخول فى أى نزاع مع التاج البريطانى ولم يكن راغبا كذلك فى أى انقلاب اجتماعى ، لكنه لم يكن راضيا عن الطريقة التى تعامل بها الحكومة الإنجليزية أبناء فرجينيا .

فكر واشنطن فى ذلك حتى صح منه العزم على وجوب تغيير هذه الحالة ولو أدى ذلك إلى القتال . واجتمع الكونجرس فى فيلادلفيا فى ١٠ مايو ١٧٧٥ ولبى واشنطن الدعوة لحضوره بالعبارة التالية : إن عزمى الصادق ونيتى الكاملة ، فى أن أكرس حياتى وثروتى لخدمة هذه القضية » .

وأصبحت أمريكا على أبواب الحرب وبدأ الجميع يتلفتون حولهم ليختاروا قائد القوات الأمركية ، وعندما أصدر الكونجرس قراره بتعيين جورج واشنطن قائداً أعلى للجيش الأمريكى قال : أرجو أن يتذكر كل

رجل فى هذه القاعة ما أقوله مخلصاً بأننى لا أعتبر نفسى كفئاً للقيادة التى شرفت بها .

وبمثل هذا التواضع ، ولكن بعزيمة صادقة وبسالة نادرة تسلم الجنرال واشنطن قيادة القوات الأمريكية فى حربها من أجل الحرية والاستقلال .

وقد تمكن واشنطن فى أقل من سنة من طرد البريطانيين من بوسطن ، وصمد لهم فى نيويورك حيث كانوا يتفوقون عليه تفوقاً ساحقا فى العدد والعُدّة .

وفى سنة ١٧٧٦ عندما كان الإنجليز يحتفلون بعيد الميلاد فى «ترينتون» عبر واشنطون برجاله نهر (ديلاوا . وسط قطع الجليد الطافية على وجه الماء وتحت وابل الثلج المنهمر الذى يعمى البصر واستولى على المدينة وأخذ ألف أسير من البريطانيين ، فزحف «كورنواليس» القائد البريطانى مسرعا إلى مكان الموقعة متوقعا أن يتمكن من قلب الأوضاع وقال لرجاله وأركان حربه وأخيرا سنتغلب على هذا الثعلب القديم بحيث لا يصبح الصباح حتى يكون فى قبضتنا ، ولكن بينما كان الإنجليز يغطون فى نومهم أفلت واشنطن من الشباك التى نصبت له تاركا نيران معسكره مشتعلة ليخدع العدوّ ويتغلب عليه فى « برينتون » .

وفى مايو ١٧٧٨ وردت البشائر بأن الفرنسيين قادمون لمساعدة المستوطنين ، فأوحى هذا التحالف نشاطا جديدا للجيش وبرهن واشنطن على حكمة عظيمة ومقدرة فائقة فى حسن التصرف مع الحلفاء الأجانب لا تقل عن مقدرته فى قيادة قواته الخاصة .

وفى سنة ١٧٨١ أرغم لورد كورنواليس على التقهقر شمالا إلى «يوركتون» فى فرجينيا . فزحف واشنطن على جناح السرعة إلى الجنوب

لقطع الطريق عليه ، وكان « لافاييته » القائد الفرنسى الشاب هناك مع رجاله والأسطول الفرنسى مرابط فى خليج « شاسبيك » ، وهكذا وقع « كورنواليس » فى الشرك وأسقط فى يده ، فاستسلم مع جيشه ، وعقد الصلح بعد ذلك بعامين وانتهت حرب الاستقلال والحرية .

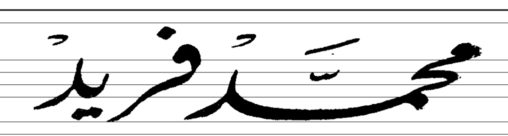
وفى سنة ١٧٨٧ اجتمع المؤتمر الدستورى فى فلادلفيا برئاسة جورج واشنطن وتناقش طوال أربعة أشهر ، ووضع بمساعدة واشنطن وبعد نظره . تلك الوثيقة الحكومية الفريدة ألا وهى دستور الولايات المتحدة .

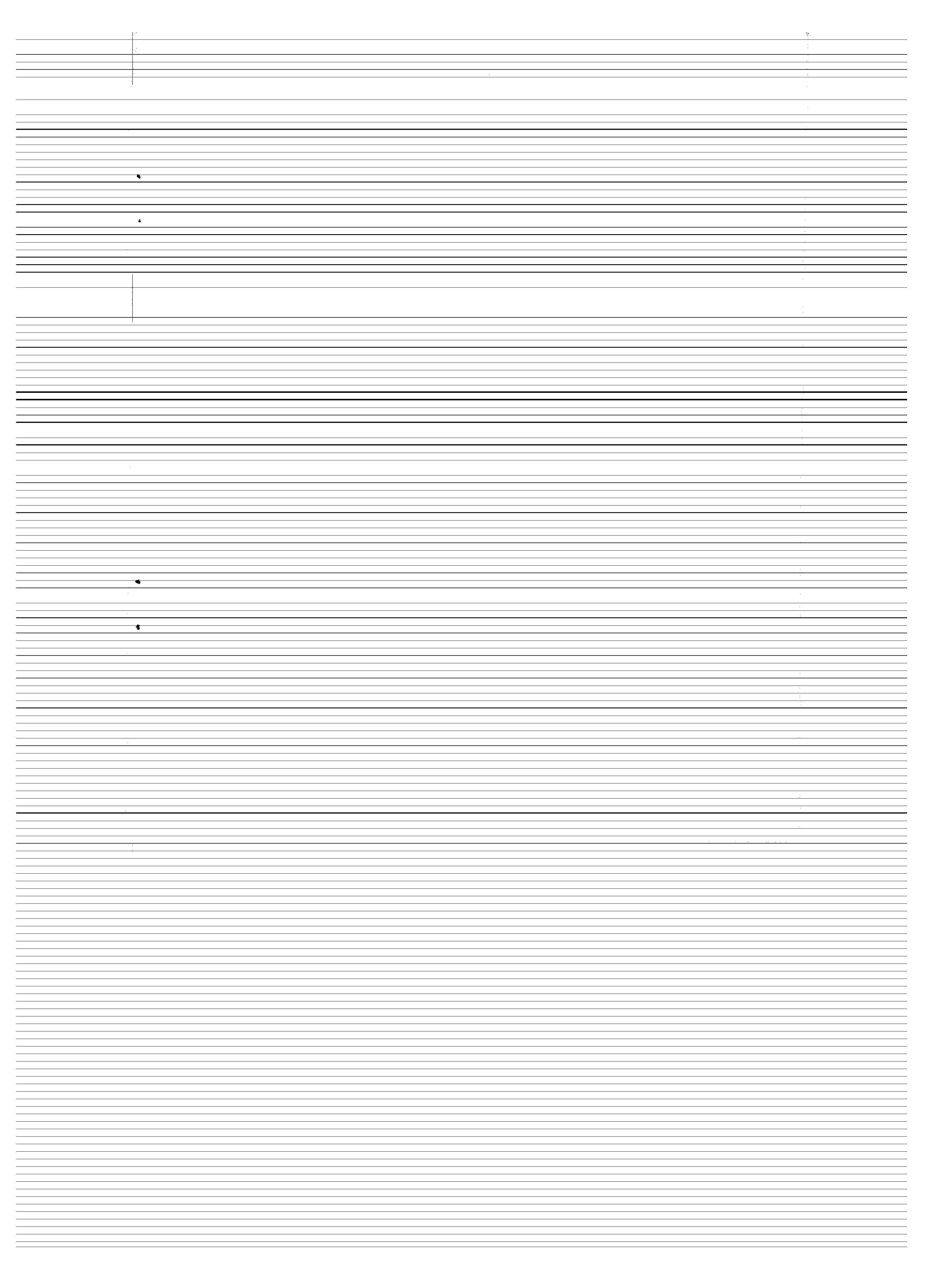
وانتخب جورج واشنطن بالإجماع ليكون أول رئيس للولايات المتحدة وقد خاطبه جونسون حاكم « ماريلاند » بقوله : « لانستطيع ياسيدى أن نستغنى عنك أو نعمل شيئا بدونك » . وعلى شرفة قاعة الاتحاد « فيدراك هول » فى نيويورك أقسم واشنطن يمين الرئاسة ، وكان ذلك فى ٣٠ ابريل سنة ١٧٨٩ وكانت المهمة الملقاة على عاتقه ، وهى إنشاء حكومة للأمريكيين المتحررين ، عظيمة جدا كالمهمة التى حققها فى حرب الاستقلال .

وظل واشنطن متولياً منصب الرئاسة خلال فترتين انتخابيتين ، مدتهما ثمانى سنوات ورفض بعدها بكل إصرار اعادة انتخابه ، وبذلك وضع سابقة تقضى بألا يجوز لرئيس الجمهورية أن يظل فى منصبه أكثر من ٨ سنوات .

وبعد أن أدّى واجبه نحو بلاده تحول مرة أخرى إلى مزارع ، وإلى مواطن ريفى كريم الأخلاق ، فى « مونت فريون » حيث ظل يهتم اهتماما

جديا وعملياً بشئون الأمة ، ولم يكن قد تبق له سوى ثلاث سنوات ليعيش في ذلك الموطن الذى أحبه كثيراً ، ففى ١٤ يناير ١٧٩٩ انتهت حياته بعد مرة لم يستغرق سوى يومين وعلى شفتيه العبارة التالية : « كل شيء حسن » وقد شعر العالم كله بفراغ كبير بعد انتهاء هذه الشخصية الكريمة التى عملت لاستقلال بلادها وتدعيم النظام والدستور فيهما . .





ولد محمد فريد بمدينة القاهرة فى ٢٠ يناير سنة ١٨٦٨ ، وكان أبوه أحمد فريد باشا ناظراً للدائرة السنية ومن كبار الأغنياء ، واشتهر بسمو النفس وكرم الخلق مما كان له أثر كبير فى تربية ولده محمد فريد .

تخرج من مدرسة الإدارة والحقوق ، وعين فى وظيفة مترجم بقلم قضايا الدائرة السنية ، ثم أصبح رئيساً للقلم . ونال رتبة البكوية من الدرجة الثانية ثم اختير مساعد نيابة ثم وكيلا للنيابة ، وفى تلك الفترة كانت مصر ميداناً لصراع قوى متعددة ، — أبرزها قوة الاحتلال البريطانى الذى أطلقت يده فى مصر يفعل بها ما يريد بعد الاتفاق الودى الذى تم بين بريطانيا وفرنسا سنة ١٩٠٤ وبمقتضاه تطلق فرنسا يد بريطانيا فى مصر مقابل أن تطلق بريطانيا يد فرنسا فى تونس .

وتأتى بعد قوة الاحتلال قوة الخديو الغريب الذى يحكم اسمياً « بلداً يبغضه ولا يفكر فى مصلحته أو فائدته وهو لذلك يحاول استهواء بعض الأشخاص ذوى النفوس الضعيفة ليتقرب بها إلى سيادة البريطانيين .

وهناك قوة الأجانب الذين يسيطرون على رءوس الأموال فى مصر كلها تقريباً وفى مقدمتهم الشركات البريطانية التى يعمل الاحتلال على تمكينها من استغلال موارد مصر لكى تظل خائرة القوى .

وهناك قوة الإقطاع الذى أوجده خلفاء المغامر الألبانى محمد على فى طبقة من الأجانب والجوارى والوصوليين ، وهؤلاء قد وجدوا مصلحتهم الشخصية فى التزلف إلى الاحتلال ومصانعة الخديو لكى تظل لهم امتيازاتهم وأرضهم الواسعة .

وهناك الشعب العربى فى مصر من الفلاحين الذين لا يملكون

فى بلدهم أكثر من خمسة فى المائة مما يملكه الأجانب، أى أنهم كانوا يخضعون لسلطان الحكم الفردى واستبداد المستعمر الأجنبى ، وما من أحد حاول أن يفتح فمه بكلمة حتى يحل عليه العذاب الغليظ .

وبدأ محمد فريد حياته السياسـية بكتابة المقالات والمشاركة فى الاجتماعات ، وحينما عرضت قضية جريدة « المؤيد » على القضاء وتتلخص فى أنه عندما كان الجيش المصرى يحارب فى السودان أرسل اللورد كتشنر سردار الجيش برقية سرية فى شهر يوليو سنة ١٨٩٦ وكانت خاصة بصحة الجيش ، فنشرت « المؤيد » هذه البرقية وهى تشير إلى حالة القلق من انتشار وباء الكوليرا فى هذه المناطق .

ورأى محمد فريد — وهو وكيل نيابة — أن يشارك بميوله الوطنية جريدة « المؤيد » فى سبيل الدفاع عن حرية الرأى ، فلما عرفت السلطات البريطانية ذلك طلبت من رؤسائه أن يعاقبوه لأنه شهد القضية عند نظرها أمام المحكمة ، فاستجاب رؤساؤه إلى ما طلبته السلطات البريطانية منهم ، ونقل إلى الوجه القبلى .

واعتبر محمد فريد هذا التصرف إهانة له ، فلم ينفذ أمر النقل وقدم استقالته من منصبه فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٩٦ .

واتخذ محمد فريد مكتباً للمحاماة فى سنة ١٨٩٧ ، وكان أول شاب مصرى اشتغل بهذه المهنة الحرة من أبناء الأثرياء ، وقد سلك فيها مسلك الشرفاء ذوى الضمائر الحرة والأخلاق النبيلة .

وفى خطبة ألقاها يوم ١٤ فبراير سنة ١٩٠٨ شرح فيها كيف عرف الزعيم الوطنى مصطفى كامل . فهو يقول : «إنه عرفه سنة ١٨٩٣ ، وكان مصطفى كامل يصدر مجلة « المدرسة » بعد عامين التقيا فى باريس ، فتوثقت

بينهما عرى الصداقة ، ومنذ ذلك الحين تعاهدا على خدمة مصر والكفاح من أجل حريتها واستقلالها ، وكان معهما الدكتور محمود لبيب ، وتولى الثلاثة إصدار مجلة أسبوعية باللغتين الألمانية والفرنسية ، وكان يقوم على إدارتها شاب ألمانى اسمه (هانس رزنر) وظلت هذه المجلة تصدر حتى توفى مديرها الألمانى فتوقفت عن الصدور .

وكانت الصداقة التى نشأت بين مصطفى كامل ومحمد فريد قوية متينة ، فقد أعان محمد فريد مصطفى كامل على أداء رسالته بما يملك من مال وجاه ، ويقول مصطفى كامل فى إحدى رسائله إلى محمد فريد : « كنت أحس بواجبى نحو مراسلتك ، ويسهل شوقى إليك قيامى بهذا الواجب نحوك ، وأتلذذ حقا بمكاتبة صديق مثلك أساس مودته محبة الوطن العزيز . أى أشرف وأجل إحساس عند الإنسان » .

وقد خلف محمد فريد الزعيم مصطفى كامل فى رياسة الحزب الوطنى ، وقد بدأ كفاحه بالمطالبة بالجلاء ، وعندما توسل بعض المصريين إلى السلطات البريطانية بشأن إصدار الدستور وإقامة الحياة النيابية فى مصر استنكر محمد فريد هذا التصرف ونقد مسلكهم نقدا مرًّا ، إذ أن أمر بريطانيا فى مصر غير شرعى ، فلا يجوز أن يتوجه المصريون إليها بما يريدونه من إقامة الحياة النيابية .

وعندما استقال اللورد كرومر بطل مأساة دنشواى كانت استقالته نصراً كبيرا للقوى الوطنية فى مصر ، غير أن أذناب بريطانيا وعلى رأسهم مصطفى فهمى « رئيس الوزراء » ألفوا لجنة من بينهم للاحتفال بتكريم كرومر ، فكتب محمد فريد يقول :

« أما نحن فيوجد من بيننا من يقوم بمجاملة العدو القاهر وتقبيل اليد التى يضرب بها ، فيقوم منا نفر — ولو أنه قليل — للاحتفال بوداع

عميد الدولة المحتلة ، أى الرجل الذى سعى لهدم استقلالنا وجعل بلادنا مستعمرة بريطانية . ويمضى قائلا : بل نقول : إنه سبَّة لأرواح شهداء دنشواى ولمسجونيها الذين ما زالوا يرسفون فى القيود والأغلال ضحية لسياسة الفرد ضد رغائب أمة يزيد عددها عن اثنى عشر مليوناً » .

وقد زاد فى صعوبة موقف محمد فريد أن حلت سياسة الوفاق بين الاستعمار البريطانى والخديو ، فكان من المحتم على محمد فريد أن يحارب فى جهتين اتحدتا ضده . وكان الحزب الوطنى يكسب كل يوم أنصاراً ، فخشيت الحكومة من ازدياد نفوذه ، واشتدت عداوتها للحركة الوطنية حتى إنها حرضت النيابة العامة على عبد العزيز جاويش برفع الدعوى ضده ، لأنه نشر مقالا عن ذكرى دنشواى اعتبرته النيابة طعناً فى حق بطرس غالى رئيس الوزراء ، وفى حق فتحى زغلول ، وحكم عليه ابتدائيا بغرامة قدرها أربعون جنيها ، فلما استأنف واستأنفت النيابة الحكم قضت محكمة الاستئناف بحبسه ثلاثة شهور ، وقوبل هذا الحكم بالاستياء الشديد . وجمع الشعب الأموال لصنع وسام أهداه إلى الشيخ عبد العزيز جاويش تقديراً لوطنيته الصادقة .

* * *

وفى ابريل سنة ١٩٠٩ سافر محمد فريد إلى تركيا ، وكان دائب العمل فى رحلته هذه من أجل تحرير مصر ولما وجد أن رجال تركيا يريدون استخدامه آلة فى أيديهم لتحقيق أهداف الدولة العثمانية فى مصر ، ترك تركيا وسافر إلى سويسرا حيث عقد فيها مؤتمراً للشبيبة المصرية بجنيف ، واشترك فيه أربعة من أحرار بريطانيا ومن أعضاء مجلس العموم ، وهم : مستر كيرهارى ، ومستر بارنز ، ومستر كيتل ، ومستر هازلتون ، وظل هذا المؤتمر منعقداً ثلاثة أيام ، خطب فيه الكثيرون ، وألقيت فيه

بيانات وموضعات عدة ، وأصدر المؤتمر قرارات يؤيد فيها مطالب مصر فى الجلاء والدستور ، واحتج على الحكومة المصرية لإعادتها العمل بقانون المطبوعات ، ودعا إلى عقد مؤتمر بالقاهرة لبحث مسألة التعليم الحر البعيد عن رقابة الحكومة .

كان جهاد محمد فريد فى خارج بلاده قاسياً مريرا ، فثروته كلها أضاعها فى سبيل بلده ، ومع ذلك لم يخمد إلى السكون ، بل ظل يكافح كفاحاً رائعاً فى تحرير وطنه ، وفى سنة ١٩١٠ أثيرت مسألة مد أجل امتياز شركة قناة السويس أربعين سنة أخرى تنتهى فى سنة ٢٠٠٨ فى مقابل أن تدفع الشركة لمصر أربعة ملايين من الجنيهات ونسبة ضئيلة من الأرباح .

وأرادت الحكومة أن تتصرف وحدها فى هذا الأمر الخطير ، على الرغم من وجود مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، وتنبه محمد فريد لهذه المؤامرة الاستعمارية ، فحصل على مشروع الاتفاق ونشره فى جريدة « اللواء » ، وطالب بعرضه على الجمعية العمومية لأخذ رأى الشعب فيه .

ووقف الشعب وراء محمد فريد يؤيده ، فلم تجد الحكومة مناصاً أمام ضغط الرأى العام ، إلا أن تقرر عرض الاتفاق على الجمعية العمومية ، واعتبر ذلك نصراً باهراً للحركة الوطنية .

وكان من المعروف أن رأى الجمعية العمومية استشارى وغير ملزم للحكومة ، بيد أنه عندما بدىء فى عرض هذا الاتفاق عليها وقف بعض الأعضاء يسألون الحكومة : هل رأى الجمعية العمومية فى هذا الاتفاق ملزم أم لا ؟

واضطرت الحكومة إلى أن تجيب بأن رأى الجمعية العمومية قاطع وملزم لها ، وكان هذا أكبر نصر للحركة الوطنية .

وتألفت لجنة من بين أعضاء الجمعية العمومية لدراسة مشروع الاتفاق وإبداء الرأى فيه من : محمود سليمان باشا ، واسماعيل أباظة باشا ، وحسن مدكور باشا ، وإبراهيم مراد باشا ، وأحمد على باشا ، وعلى شعراوى باشا ، ومحمود بك عبد الغفار ، وحسن بك بكرى ، وفتح الله بركات بك ، وعبد اللطيف الصوفانى بك ، وجاد مصطفى بك ، وسعد مكرم بك ، ودياب أفندى محمد سليم ، وأمين العارف بك ، وإسماعيل أفندى كريم .

واجتمعت اللجنة عدة اجتماعات وبحثت الموضوع من جميع نواحيه ووضعت الحكومة أمامها عده عقبات حتى لا تصل إلى دقائق الموضوع . ومن جهه أخرى عملت الحكومة كل ما وسعها لاستمالة أعضاء الجمعية العمومية إليها ووعدتهم بكل المغريات لكى يقفوا إلى جانب المشروع ويؤيدوه ، لأنها تريد مد أجل الاتفاق بأى ثمن .

وعلى الرغم من الوسائل التى اتبعتها الحكومة لإكراه أعضاء الجمعية العمومية لإقرار المشروع ، فإن شعور الشعب الملتهب وكفاح محمد فريد فى مقالاته وخطبه، كل هذا جعل اللجنة التى تألفت لدراسة المشروع تقرر فى النهاية رفضه بعد أن استعرضت دقائقه وأسراره من كافة النواحى فيه وأوضحت أن مشروعاً كهذا لا خير فيه لمصر ولا فائدة ترجى من ورائه والخير والفائدة يعودان على شركة قناة السويس التى تريد أن تجعل من وجودها فى مصر دولة داخل الدولة تتحكم فى مصائرنا وتستبد بشئوننا وترغمنا على الخضوع لإرادتها ولمشيئة المستعمر الأجنبى .

وفوجئت الحكومة بهذا القرار الذى كان بمثابة لطمة هائلة لها ، وحاولت الحكومة عبثاً أن تحصل على موافقة الأعضاء ، إذ قررت الجمعية العمومية رفضه بإجماع الأصوات .

* * *

كان من البديهى أن يناصب الخديو عباس حلمى محمد فريد العداء ، ففى ابريل سنة ١٩١٠ نشر بجريدة الطان الباريسية حديثاً لمراسلها « جان رود » مع الخديو عباس قال فيه :

« لقد اشتغلت دائماً فى ترقية بلادى وتقدمها فى الحضارة ، ولكن بالأسف وجد قوم متسرعون جداً أخروا تقدمها الطبيعى بإلحافهم فى مطالب سابقة لأوانها ومصحوبة بالضوضاء » .

وتحدث الخديو عباس عن الاحتلال البريطانى ومعتمده السير أولون جورست فقال : « لى وطيد الأمل فى القيام بمهمتنا بمساعدة البلد الذى يؤيد مصر تأييداً عظيما فى رفع شأنها وتمدنها ، وإن وجود ممثل هذا البلد السير أولون جورست بيننا يعتبر ضمانة وثيقة لنا لتحقيق ذلك » .

وقد كتب محمد فريد مقالين فى جريدة الشعب انتقد فيهما الخديو عباس نقداً شديداً وهاجم كذلك سياسة الوفاق وبذلك أوضح للشعب حقيقة الخديو عباس .

وضاق الخديو ذرعاً بمحمد فريد، وكان يحاول دائماً أن يستعدى عليه الإنجليز ، فلما لم تجد هذه الطريقة أخذ يتودد إليه حتى إنه عند ما قدم إلى المحاكمة بسبب المقدمة التى كتبها لديوان الشيخ على الغاياتى « وطنيتى » أرسل إليه الخديو يبلغه باسمه الوعد بحفظ القضية فى مقابل أن يزوره وينتهج سياسة الوفاق ، فرفض محمد فريد ذلك بإباء وشمم ، ورضى أن يقدم إلى المحاكمة وأن يحكم عليه بالحبس ستة أشهر .

وعند ما قامت الحرب العالمية الأولى خلعت بريطانيا الخديو عباس عن العرش وعينت مكانه السلطان حسين كامل .

وهكذا كان الاستعمار البريطانى يفرض الدمى من أبناء أسرة الألبانى

محمد على حكاماً على مصر دون استشارة الشعب ، حتى جاءت ثورة ٢٣ يوليو فخلصت مصر إلى الأبد من الاستعمار ومن حكم الدمى التى كانت تتحرك وتحكم باسم المستعمر ولحسابه .

ويقول محمد فريد فى خطبة له ألقاها بمؤتمر عقد فى جنيف :

« إن مصر محكومة بالمستشارين الإنجليز الذين يديرون دولاب الأعمال فى الوزارات وخصوصاً المستشار المالى الذى له حق الحضور فى جلسات مجلس الوزراء ، يحكم بلادنا أولئك المستشارون غير المسئولين الذين يحركون وزراءنا البائسين كما يشاءون ، فيتحمل أولئك الوزراء أمام مواطنيهم مسئولية أعمال رجال الاحتلال وغلطاتهم . . سيظل هذا النظام قائماً فى مصر ما دامت محرومة من دستور يسمح للأمة أن تدير شئونها بنفسها وتكون وزارتها مسئولة أمام برلمانها ، ونحن لا نطلب ذلك الدستور من انجلترا التى نعتبر احتلالها قائماً على قاعدة الاغتصاب وانتهاك حرمة الحقوق الشرعية . وإنما طلبناه وسنطلبه من الخديو الذى يمثل السلطة الشرعية وسنناله فى أقرب مما يظنون » .

وقد كان من نتائج مطالبة محمد فريد بالحياة النيابية فى مصر أن أنشئت الجمعية التشريعية وكانت سلطاتها واختصاصاتها أوسع قليلا من سلطات واختصاصات مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية .

* * *

وفى سنة ١٩١٠ عرض عليه محمد سعيد باشا أن يشترك معه فى وزارته فرفض قائلا كلمته المشهورة الخالدة :

« كيف تطلب منى أن أشترك فى حكم البلاد فى ظل الاحتلال . وأنا أجاهد الاحتلال وكيف يتفق النقيضان ؟ »

وفى أكتوبر سنة ١٩١٠ جاء إليه فى باريس رسول من الحكومة البريطانية وأبلغه بأنه مكلف بأن يعرض عليه منصب الوزارة ، وأن من كلفه بهذا يعرف أنه يمر بأزمة مالية خانقة،وأنه مستعدلسداد ديونه كلها .

فقال محمد فريد :

« إن ضياع ثروتى لايؤثر فى مبادئى ، وإنى أرفض أى مركز فى الحكومة مادام الإنجليز فى مصر » .

وعاد إليه الرسول من جديد فى تركيا وسأله :

— « أما تزال مصراً على موقفك » ؟

فأجابه فى عزم :

— إننى مصر على الرفض حتى مماتى . . .

بل إن الدولة العثمانية عرضت عليه منصب عمادة كلية الحقوق فى الآستانة فرفض وهو أشد ما يكون حاجة إلى مورد رزق ثابت ، إذ كان منفياً ، بيد أنه لم يقبل أن يربط نفسه إلى عجلة الوظيفة فى أى مكان .

لقد ورث محمد فريد عن والده ١٢٠٠ فدان ، وقصراً تزيد مساحته على خمسة أفدنة فى شبرا ، وهى ثروة تقدر اليوم بملايين الجنيهات ، وقد ضحى بهذه الثروة كلها فى سبيل تحرير مصر ، ورضى أن يعيش على الكفاف مناضلا صلباً من أجل الدفاع عن استقلال بلده .

* * *

وقد بدأ محمد فريد يدعو إلى العدالة الاجتماعية قبل أن تقوم ثورة سنة ١٩١٩ بأكثر من عشر سنوات فنظم نقابات العمال ، ودعا إلى التعاون

وطالب بالإصلاح الزراعى وكافح كفاحا مريرا من أجل الطبقات الكادحة، وكان من الطبيعى أن تخطو الحركة الوطنية خطوات واسعة فى هذا السبيل ولكن شيئاً من هذا لم يتحقق فقد استهلكت حيوية الشعب فى الهتاف لشعارات جوفاء فأصبحت الحرية المصرية بلا أنياب يهزأ بها الإنجليز ، ويركبها الملك بالهوان وتعبث بها الأحزاب عبثاً شديدا ، ولا يجد الشعب آخر الأمر فى يده سوى حديث طويل عن الحرية ، وعن الدستور ، ولا حرية ، ولا دستور . .

ويقول محمد فريد : « لا تظنوا أن أبا الهول نائم تماما كلا فإنه ينام بإحدى عينيه وينظر بالأخرى إلى الأمم القائمة التى توالت على مصر وذهبت كأمس دابر وهو رابض مكانه يمثل الأمة المصرية الأبدية التى لم يؤثر فيها المغيرون ، بل هى دائما مليئة بالحياة ومن طبيعتها أن تتغلب على القائمين .

هذه نبوءة محمد فريد ، حققتها ثورة ٢٣ يوليو . ومما لاشك فيه أن أبا الهول راض عن نفسه كل الرضا، لأنه حين يفتح عينيه فلن يرى العدو الغاصب فى أرض مصر ولن يرى أحدا من أسرة الألبانى محمد على متربع على عرش مصر ، فقد أصبح حكم مصر لأبنائها .

وفى آخر رسالة له وجهها إلى الشعب يقول فيها :

« إخوانى المصريين الأعزاء . .

إن الصوت الذى يناجيكم اليوم لصوت منعته الظروف عن الارتفاع فى صحف مصر من نحو سبع سنوات ولكن منعه من الارتفاع على ضفاف وادى النيل لم يكن عقبة تعوقه عن الدفاع عن القضية المصرية فى عواصم أوربا ، سواء قبل هذه الحرب ، أم فى أثنائها ، أم بعدها .

إن صوت هذا الضعيف لم يخفت يوما واحدا ، ولم يتأخر عن القيام بما تفرضه عليه الوطنية طرفة عين ، بل كان يزداد قوة ونشاطا كلما تراكمت أمامه الموانع وتكدست العقبات .

إن هذا الصوت يناجيكم اليوم من وراء البحار ليهنئ الأمة المصرية على تضافرها وتضامنها فى المطالبة بحق أمنا المظلومة مصر ، لافرق فى ذلك بين أبنائها وبناتها ، مسلمين وأقباطا ، مما كان له دوى فى أوربا أخرس المتهمين إياهم بالتعصب الدينى ، وهم يعلمون انهم لكاذبون ، وقضى القضاء الأخير على دعوى أن المصريين اتفقوا على ألا يتفقوا .

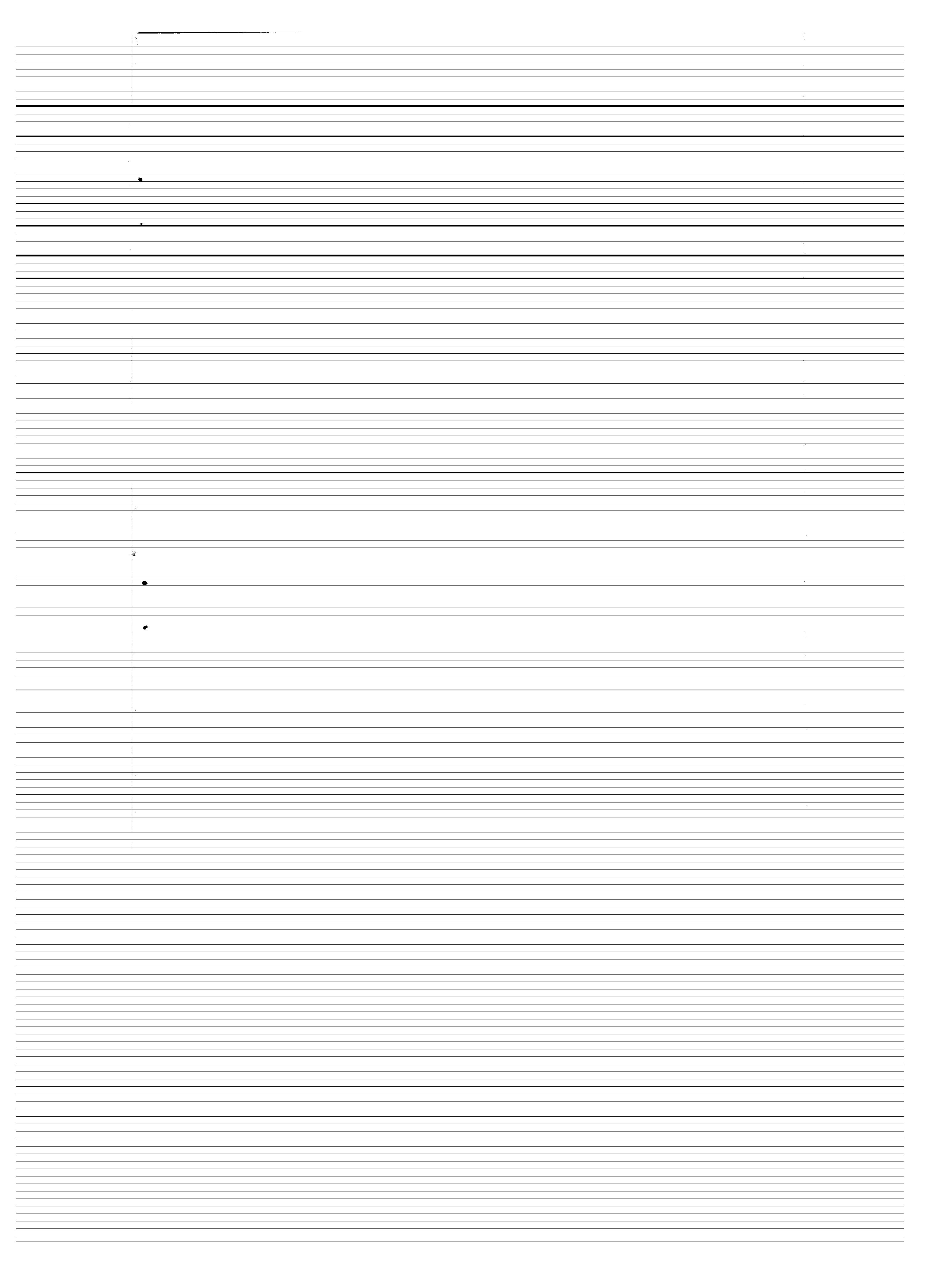
وختم رسالته قائلا :

«سلام عليك أيها الوطن المفدى ، سلام على النيل وواديه ، سلام على الأهرام وبانيه ، سلام على خدام مصر المخلصين ، سلام على شهداء الحرية . . .»

وفى ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ صعدت روح محمد فريد إلى باريها فى السماء وقد احتفل بتشييع جثمانه فى برلين ، وأودع جثمانه الطاهر فى صندوق لينقل إلى وطنه فيما بعد .

وقد تولى الحاج «خليل عفيفى» ، وهو تاجر أقطان بالزقازيق أداء هذا الواجب ونقل رفات محمد فريد على نفقته الخاصة .

وقد احتفل الشعب كله بتوديع الشهيد العائد حتى وورى جثمانه التراب وما يزال محمد فريد . . رمزا للتضحية والفداء . .



عَبدُاللّٰہ النَدیمؔ

ولد عبد الله بن مصباح بن ابراهيم فى الإسكندرية فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٢٦١ هـ (١٨٤٥ م) وكان أبوه من مواليد الشرقية وغادرها إلى الإسكندرية ليعمل نجاراً للسفن بالترسانة ، ولكنه لقى المتاعب من الرؤساء فترك عمله ، واتخذ لنفسه مخبزاً لصنع الخبز وبيعه ، وأعانه ذلك على الحصول على قوته وقوت أولاده ، ولم يكن ذلك بالكثير .

هكذا نشأ «النديم» فى أسرة تعيش على الكفاف ، وأرسله أبوه إلى الكتاب كما يفعل الناس من مثل طبقته يرسلون أولادهم إلى الكتاب زمناً ما ، فإذا اشتد ساعدهم ، أخذوهم إلى دكاكينهم فى مثل صناعتهم التى تتوارث كما يتوارث المال .

ولكن النديم تفوق فى الكتاب ، وظهرت عليه سيمات النبوغ فأراد أن يستمر فى دراسته ، ولم يمانع أبوه ، ففكر فى إرساله إلى الأزهر ولكن ضيق ذات اليد جعله يكتفى بإرساله إلى مسجد الشيخ إبراهيم باشا ، وكان هذا المسجد فى الإسكندرية صورة مصغرة من الأزهر يدرس فيه المشايخ مايدرس فى الأزهر ، ولم ترض تلك الدراسة الجافة النديم ، فسرعان ما ملها وازداد إعراضه عنها يوما بعد يوم ، وكانت نفسه ميالة إلى الأدب إذ وهب له الله بديهة حاضرة وميلا إلى نظم الشعر والزجل ، فأخذ يغشى مجالس الأدب ويخالط فيها الأدباء ويستمع إليهم وهو يرنو إلى ذلك اليوم الذى يصبح فيه أديباً مثلهم ، وكانت له حافظة قوية إلى جانب بديهته الحاضرة وحسه المرهف مما ساعده على حفظ الشىء الكثير إلى أن تبلورت شخصيته ووجد فى نفسه القدرة على نظم الشعر والزجل وتحرير المقالات .

بيد أن الأدب ليست مهنة تدر الربح وتقيم الأود ، وسرعان ماوجد النديم نفسه مرغماً على صناعة تكفل له الرزق ، فتعلم فن الإشارات التلغرافية ، واشتغل بمكتب التلغراف ببنها ، ثم نقل إلى مكتب القصر العالى حيث تسكن والدة الخديو إسماعيل،وكان قصرا ضخما يقع على النيل فيما يسمى الآن « بجاردن سيتى » . وقد عاش النديم فى ربوعه فترة تعلم فيها كيف يعيش الأمراء والسادة ، كما تعلم فى بيته بالإسكندرية كيف يعيش الفقراء والأقنان ، ممـا كان له أثر كبير فى صقل نفسه وتوجيهها الوجهة الشعبية التى قدر له أن يتبعها فى مستقبل حياته .

وعاد إليه فى القاهرة شوقه إلى الأدب ومجالس الأدباء ، وكان حظ القاهرة فى ذلك أوفى،ففيها مثلا مجلس محمود سامى البارودى ، وكان مجلسا عامرا يعرض فيه الأدب القديم والحديث على السواء ، ونقد هادف لهذا وذاك ، يتخلله نوادر فكهة ، اتصل النديم بهذا المجلس وأمثاله ، وتوثقت الصلة بينه وبين كثير من أدباء مصر إذ ذاك ، منهم محمود سامى البارودى ومحمود صفوت الساعاتى والشيخ أحمد الزرقانى وعبد العزيز حافظ ومحمد سعيد وعبدالله فكرى . وكان الذى عرفه بهؤلاء الأدباء الشيخ أحمدوهبى أحد المولعين بالشعر الناظمين له ، والمحرر بالوقائع المصرية فى بعض أيامه .

فأتم على هؤلاء وأمثالهم دراسته ، وارتوى من ينابيعهم وازداد عن طريقهم معرفة بالأدب .

ويشاء سوء الحظ أن يرتكب النديم غلطة تكون سبب غضب خليل أغا عليه ، وخليل أغا هو كبير أغوات الوالدة أم اسماعيل . وهو ذو سطوه ونفوذ كبير يتحكم فى أمور الدولة ويأتمر بأمره كبار الموظفين والأعيان ، فأمر خليل أغا بضربه وفصله من عمله .

وضاقت الدنيا بالنديم ، وتنكرت له الأيام ، وانتهى به المطاف إلى أن ينزل على الشيخ أبى سعدة عمدة بدواى بمديرية الدقهلية ليقيم عنده ويعلم أولاده . ثم ما لبث أن تخاصم مع العمدة . وكان العمدة يرى ألا حق للنديم فى أجر مادام يسكنه ويطعمه ، وثار النديم مطالباً بأجر تعليمه لأبناء العمدة . واختلفت وجهات النظر وتشاجرا ثم تسابا ، وغلى مرجل النديم فكان ذلك خيراً لأدبه ، إذ انفجر المرجل وتدفق النديم يصوغ فى هجاء العمدة أدباً لاذعاً .

ثم اتصل بالسيد محمد الفرقاوى أحد أعيان التجار بالمنصورة فأكرم وفادته ورحب به . وأعانه على فتح دكان لبيع المناديل وما إليها ، ولكن النديم لم يخلق للتجارة ، وكان الأدب شغله الشاغل ، فاتخذ من متجره مجمعاً للأدب ، يجتمع فيه بعض أصحابه يتذاكرون الأدب ويتناشدون الأشعار ، ويتبادلون النوادر .

وهكذا ألهاه حبه للأدب عن تجارته فباءت بالخسران ، فأغلق دكانه وعاد يطوف من جديد بالبلاد ينزل ضيفاً على هواة الأدب إلى أن نزل بطنطا وصادف مولد السيد البدوى فكانت له حادثة طريفة لفتت إليه الأنظار وشهرته بين الناس .

وكانت بيوت الكبراء ندوة للأدب ، ومكاناً يلتقى فيه الشعراء والزجالون يسهرون ويسمرون ، وكان لكل بيت شهرته ، فهذا ندوة للأدباء وذلك مجمع للفقهاء وهكذا . وكان بيت شاهين باشا كنج بطنطا ، وهو مفتش الوجه البحرى إذ ذاك أحد تلك البيوتات الكبيرة التى يلتقى فيها الأدباء ، فتعرف به النديم فوجد فيه شاهين باشا قبح منظر مع طلاقة لسان وخفة روح ، وسرعة بديهة فقربه إليه ، واتخذه نديماً .

وحدثت بينه وبين طائفة الأدباتية واقعة مشهورة ، والأدباتية طائفة

من الشحاذين يستجدون الناس فى الطريق بإنشاد الأزجال والدق على الطبول وأغلب أزجالهم مرتجل فى مقتضى الحال[١].

ويقول عبد الله النديم عن هذه الحادثة (اتفق لى أن كنت بمولد سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه سنة ١٢٩٤ هـ وكان معى السيد على أبو النصر والشيخ رمضان حلاوة والسيد محمد قاسم والشيخ أحمد أبو الفرج الدمنهورى ، فجلسنا على قهوة الصباغ نتفرج على أديب وقف يناظر آخر ، فلما فطن أحدهما لانتقادنا عليهما استلفت أخاه إلينا وخصانا بالكلام ، فأخذا يلمحا لنا واحداً فواحداً إلى أن جاء دورهما إلىّ فقال أحدهما يخاطبنى :

أنعم بقرشك ياجندى وإلا أكسينا آمال ياأفندى
إلا أنا وحياتك عندى بقى لى شهرين طوال جوعان

فقلت على سبيل المزاح معه :

أما الفلوس أنا مديش وأنت تقول لى مامشيش
يطلع علىّ حشيش أقوم أملص لك لودان

ثم أخذنا نتبادل الكلام نحو ساعة حتى غلبا عند مافرغ محفوظهما ، فلما قمنا توجهنا إلى منزل المرحوم شاهين باشا وكنا نازلين عنده جميعاً ، أخبره السيد على أبو النصر بما كان منى مع الأدبيين ، فلما أصبحنا استدعى شاهين باشا شيخ الأدباتية وطلب منه أن يستحضر أمهر الأدباتية عنده ، ووعده أنهم إن غلبونى يعطهم ألف قرش ، وإن غلبتهم يضرب كل واحد منهم عشرين كرباجا ، فرضى بذلك . . . ،

---

(١) كتاب عبد الله النديم للأستاذين محمد عبد الوهاب صقر وفوزى سعيد شاهين .

واستمرت المساجلة نحو ثلاث ساعات غلب فيها النديم ، فكانت هذه الحادثة سبب شهرته بين الأدباء والظرفاء .

٢

وفى سنة ١٨٧٩ عاد النديم إلى الإسكندرية ، وقد صهرته الأيام فى بوتقة التجارب فأصبح أكثر خبرة بالدنيا ، عاد النديم إلى الاسكندرية فوجدها قد تغيرت ، كانت المجالس الأدبية يوم تركها تتحدث فى غزل أبى نواس ، ووصف البحترى ، وهجاء ابن الرومى ومديح الشعراء فى الخديو إسماعيل ، وفكاهات الشيخ على الليثى . . ولكنه وجد المجالس يوم عاد تتحدث فى حالة البلاد ووقوعها فى أسر الدين ، فاضطربت الحالة الاقتصادية ، وأرهقت الضرائب الناس . وأحس النديم أن الموقف يتطلب منه التدخل ، فلا بد من مشاركة الناس فى آمالهم وآلامهم ، والتفكير فى العثور على مخرج للبلاد مما هى فيه من فوضى واضطراب ، ورأى جمعية « مصر الفتاة » يجتمع اعضاؤها فينقدون هذا كله فى وضوح وصراحة ، واجتمع النديم ببعض أصدقائه ممن يلمس فيهم الإخلاص والرغبة الصادقة فى العمل لصالح البلاد ، وكان من بين هؤلاء نائب رئيس جمعية « مصر الفتاة » وكاتم أسرارها ، وعن طريقها تعرف على أديب إسحق وسليم النقاش صاحبى جريدتى مصر والتجارة ، كما تعرف بكثير من أعضاء الجمعية ، وكانت تلك هى الخطوة الأولى التى خطاها للدخول فى معترك السياسة ، ووجد النديم أن الأدب الذى كان يعشقه لم يعد مناسبا فقد كانت تعاليم جمال الدين الأفغانى قد سرت فى النفوس ووجدت صدى عميقا يتردد فى المقالات السياسية والنقدية . وأخذ يغذى الصحف بمقالاته مشاركة منه فى علاج الموقف المتأزم .

وفكر مع بعض أصحابه من أعضاء جمعية مصر الفتاة أن يحولوها من جمعية سرية إلى جمعية علنية تعمل جهارا وفى وضح النهار فى الأعمال المشروعة ، وسموها الجمعية الخيرية الإسلامية ، وهى غير الجمعية القائمة الآن بهذا الاسم ، وكانت تستهدف تربية النشء ، وبث روح المعارف بينهم ، حتى ينشأ فى البلاد جيل جديد ينهض بالبلاد نهضة كبيرة ، فقد كان النديم يؤمن كل الإيمان بأن العلم هو السلاح الذى تستطيع الأمة به أن تتبوأ مكانا سامياً بين الأمم ، فهو يقول فى خطبة له بالجمعية الخيرية الإسلامية فى سبتمبر سنة ١٨٧٩ م .

« فبأى سبب ظهر الفرق بين الشرق والغرب؟ أبطيب الهواء وإتقان المطعم والدواء ، أم بوضع النفس فى سجون الهوان ، وصرف العمر فى خدمة الإنسان ؟ ووضع النقد فى الحنايا ، وترك الكتب فى الزوايا . أما والعدل ما تقدم الغرب إلا بهمة أعيان وسهر جفون ، ونشر كتب علوم ، وإحسان وضع ورسوم ، واتجاه فكر لمبتدع ، ومخاطرة فى تجربة مخترع ، وتربية أطفال وتعاون أفراد كثيرين على مهمة خطيرة فالعود على انفراده تقوى على أن تثنيه ، ويستعصى عليك بانضمامه لأخيه ... » .

وأنشأت الجمعية مدرسة وعين النديم مديرا لها . وافتتحها بخطبة رن صداها فى الإسكندرية ، وكان ذلك فى آخر أيام اسماعيل وأقبل عليها كثير من أبناء الشعب ، ووضع لها برنامجا يحقق الهدف المنشود ، وتكفل هو بتعليم الإنشاء فيها والأدب ، وأخذ يمرن الطلبة على الخطابة والتمثيل حتى نبغ فيهما الكثيرون .

وعزل الخديو اسماعيل وولى العرش ابنه توفيق ، وظن الشعب أن الأزمة المستحكمة قد انفرجت ولاحت بشائر الاستقرار والهدوء ، وسعى النديم لدى الخديو توفيق لكى يزور المدرسة ، وكلل مسعاه

بالنجاح فزار الخديو الجديد المدرسة وجعلها تحت رعاية ولى عهده (عباس) وتبرع بالمدرسة البحرية ليدرس فيها الطلبة، كما أجرت لها وزارة المعارف مائتى وخمسين جنيها كل عام [١] .

وألف النديم روايتين اسمهما «الوطن وطالع التوفيق» و «العرب» ومثلهما هو وتلاميذه على مسرح «زيزينيا» بحضور الخديو توفيق . ونجح فيهما نجاحا باهرا أعلى ذكره . ولكن هذا النجاح أوغر عليه صدور حساده فنسبوا إليه أخطاء ظهرت فى الجمعية الخيرية الإسلامية، ففصل من المدرسة ومن الجمعية .

عندئذ اتجه النديم إلى إنشاء صحيفة ، وحبب إليه ذلك سابقة اتصاله بصحيفتى أديب إسحاق وسليم نقاش ومرانه على الكتابة فيهما، وإحساسه بأن الناس أعجبوا بما كتب . فأخرج صحيفة أسماها «التنكيت والتبكيت» وفى هذا الاسم دلالة على هدفه وأسلوبه . فهو يستهدف تأنيب المصريين على ما وصلوا إليه فى أسلوب قد يكون لاذعاً، وقد يكون مضحكا .

وظهر العدد الأول منها فى ٦ من يونيو سنة ١٨٨١، ودعا فيه الكتّاب أن يوافوه بمقالاتهم ونتاج قرائحهم على النهج الذى رسمه [٢] : كونوا معى فى المشرب الذى التزمته، والمذهب الذى انتحلته، أفكار تخيلية، وفوائد تاريخية وأمثال أدبية ، وتبكيت ينادى بقبح الجهالة . وذم الخرافات لنتعاون بهذه الخدمة على محو ما صرنا به فى الوجود من ركوب متن الغواية ، وإتباع الهوى اللذين أضلانا سواء السبيل » .

وقال النديم فى افتتاحية العدد الأول : « إنه لا يريد منها أن تكون منمقة بمجازات واستعارات، ولا مزخرفة بتورية واستخدام، ولا مفتخرة

---

(١) المرجع السابق .
(٢) «زعماء الإصلاح» الأستاذ أحمد أمين .

بفخامة لفظ وبلاغة عبارة ولا معربة من غزارة علم وتوقد ذكاء، ولكن أحاديث تعودناها، ولغة ألفنا المسامرة بها، لا تلجىء إلى قاموس الفيروزابادى، ولا تلزم مراجعة التاريخ، ولا نظار الجغرافيا، ولا تضطر لترجمان يعبر عن موضوعها، ولا شيخ يفسر معانيها، وإنما هى فى مجلسك كصاحبك يكلمك بما تعلم، وفى بيتك كخادم يطلب منك ما تقدر عليه « ونديم » يسامرك بما تحب وتهوى » .

ثم استبدلها « بلطائف » على ما قضت به المناسبات قبل الثورة العرابية .

٣

ولى الخديو توفيق العرش، ومرجل الثورة يغلى فى صدور الشعب، وكانت تعاليم جمال الدين الأفغانى قد سرت فى النفوس، فطالب الشعب بإصلاح القضاء والإدارة وتوسيع نظام شورى القوانين، ولكن الحكم الشورى لم يرض طوائف كثيرة من الانتهازيين والرجعيين، وكان جمال الدين قد أشار على توفيق بتغيير حاشية اسماعيل فأغضبهم عليه . قال الشيخ محمد عبده : « وكان وكيل دولة فرنسا أخذ يسعى فى إقامة الموانع دون إعطاء حق النظر فى تصحيح الميزانية، وتقرير الأمور المالية . ودعا وكيل انجلترا إلى مساعدته فى إقناع الخديو بضرر هذه الأوضاع الجديدة » . فتغير رأى الخديو توفيق فى ذلك كله، واستقال شريف باشا . ونفى جمال الدين، وأخذت نذر الثورة تتجمع فى الأفق . . .

وجاءت وزارة رياض باشا، وكان قليل الثقة بالمصريين، كثير الاعتماد

على الأجانب ، يؤمن بقوتهم ويرى أنه لا يستطيع الحكم إلا بالاعتماد عليهم أو على قواهم .

فثارت النفوس وتبلبلت الأفكار ، وكلها تتفق فى وجوب تغيير الحال . وإن تباينت أسباب غضب كل طائفة ، فالضباط المصريون يريدون العدل بينهم وبين الشراكسة . . وبعض ذوى الرأى يرون أنه لا يصلح الأمور إلا نظام الحكم الديمقراطى ، وبعض الأجانب لا يسرهم ما قام به رياض من ضبط الأمور المالية .

وتطورت مطالب العرابيين من عدل بين الضباط إلى تغيير شكل الحكومة من نظام استبدادى إلى نظام ديمقراطى ، ومن هنا اتحدت الطبقة المثقفة من الأمة والضباط الوطنيين فى الشعور ، وأجمع الكل على المطالبة بالمجلس النيابى .

وقد اشتد ساعد الحركة بتأليف جمعية من الأحرار والناقين على سياسة رياض باشا ، عرفوا بالحزب الوطنى « القديم » ، ونشروا فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٧٩ بيانا لهم ، وسعى رياض لمعرفة ناشريه لإقصائهم إلى السودان فلم يستطع إلى ذلك سبيلا فشجع الحزب الوطنى على متابعة العمل لإسقاط الحكومة .

وزاد فى تذمر الشعب استسلام الحكومة فى عهد وزارة رياض لمطالب الدائنين وحكوماتهم ، فقد أقرت نظام الرقابة الثنائية ، كما أملاه القنصلان الإنجليزى والفرنسى وخولت للرقيبين الأوربيين سلطة واسعة المدى فى شئون الحكومة المالية ، واتسع النفوذ الأوربى داخل الحكومة بواسطة الرقيبين وخارج الحكومة لاستجابتها لمطالب الماليين الأوربيين والترخيص لهم باستثمار موارد البلاد ومرافقها الاقتصادية ، وزادت من

طغيان النفوذ الأجنبي فى حياة مصر الاقتصادية كالبنك العقارى والشركة العمومية لإجراء الأشغال بالديار المصرية وشركة المقاولات وغيرها .. وكلها شركات أجنبية برءوس أموال أجنبية وأعضاؤها من الأوربيين وعقود تأسيسها التى صدرت بها الأوامر العالية لم تراع فيها مصالح الشعب فى شىء . وكان الإسراف فى رعاية المصالح ورءوس الأموال الأوربية وتمكينها من التغلغل فى كيان البلاد المالى والاقتصادى له أثره فى تبرم الناس بالوزارة ، فضلا عن أنه كان فى ذاته عملا غير صالح ولا يتفق والروح القومية . فى هذا الجو الذى صوّرناه فى إيجاز شديد جدا عمل عبدالله النديم ، واحتضنه العرابيون ، فكان خطيب الثورة وكاتبها .

أصدر جريدة « الطائف » بدل « التنكيت والتبكيت » ، ونقل مقرها من الإسكندرية إلى القاهرة .

ونتساءل لماذا اختار عرابى عبدالله النديم بالذات ليكون صاحب الجريدة التى تنطق بلسان العرابيين ؟

كانت الصحافة الأجنبية المغرضة تعرض بأعماله وصحبه وتدس الدسائس وتستهدف من وراء ذلك بلبلة الأفكار وإثارة النفوس خدمة للاستعمار ومناصرة للحاكم الألبانى توفيق .

ووجد عرابى أن الثورة يجب أن يكون لها قلم معبر ، ولسان ذرب يطالب بحق الشعب فى الحرية والكرامة . ومن غير النديم يستطيع أن يقوم فى جرأة بهذا العمل الوطنى ؟ . إن عبدالله النديم واحد من أبناء الشعب ، ذاق مرارة الظلم وقاسى قسوة العيش ، فى ظل حكم أسرة محمد على . وطاف بأنحاء البلاد وشاهد عن قرب كيف تمتص دماء الفلاح ليتجرعه الأجانب والأمراء نبيذاً لذيذاً ، والنديم وسعت معرفته أحوال

هذه الكتل اللحمية التى تؤلف بجموع الشقين من أبناء الوادى الحزين..

ولذلك وافق النديم على أن تكون صحيفته معبرة عن آمال الشعب وآلامه .

٤

فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ وافق الخديو توفيق على إسقاط الوزارة رياض ، وتألفت وزارة شريف باشا . وذلك بعد أن اجتمع الجيش فى ميدان عابدين ، لتقديم طلبات الأمة إلى الخديو . وهى إسقاط الوزارة وتأليف المجلس النيابى وزيادة عدد الجيش . .

ونزل الخديو توفيق إلى الميدان بصحبة المستر كوكسن قنصل بريطانيا فى الاسكندرية ، ولما وقف عرابى أمام الخديو وحياه التحية العسكرية خاطبه الخديو قائلا :

— ما هى أسباب حضورك بالجيش إلى هنا . . ؟

فأجابه عرابى :

— جئنا يامولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة ، وكلها طلبات عادلة . .

فقال الخديو :

— وما هى هذه الطلبات ؟

فأجابه :

— هى عزل رياض باشا ، وتشكيل مجلس النواب ، وإبلاغ عدد الجيش إلى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية .

فقال الخديو :

— كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا خديو البلد وأعمل زى ما أنا عاوز ، وأنتم عبيد إحساناتنا .

فقال عرابى :

— نحن لسنا عبيدا ولن نورث بعد اليوم .

فلما وصل الحوار إلى هذا الحد أشار المستر كوكسن على الخديو بالرجوع إلى القصر لافتاً نظره إلى سوء المغبة إذا زادت المناقشة عن هذا الحد ، فرجع الخديو ومن كان معه إلى داخل القصر .

وتداول الخديو فى الموقف مع من كانوا بداخل السراى من وزراء وقناصل وغيرهم فرأوا أن لا بد من الإذعان لمطالب الجيش ، واستقر الرأى على إجابة هذه المطالب تدريجيا ، وأن يبدأ بسقوط الوزاره ، فقدم رياض استقالته وعين محمد شريف رئيساً للوزارة .

وفى ٤ أكتوبر سنة ١٨٨١ رفع شريف إلى الخديو مذكرة بإجابة مطالب الشعب بإنشاء مجلس النواب ، وفى نفس اليوم صدر الأمر العالى بإجراء الانتخابات العامة وتحديد يوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ لافتتاح مجلس النواب .

ولم ترض انجلترا وفرنسا على هذا النصر الذى أحرزه العرابيون فقد هدأت الحالة تماماً واستقرت الأمور فى مصر ، واجتمع مجلس النواب وشرع فى وضع اللائحة الأساسية على أحدث المبادىء الحديثة ، وتضمنت القوانين أهم النظم البرلمانية وأصبح الوزراء مسئولين أمام المجلس ، وللمجلس كذلك الحق فى نظر الميزانية وغير ذلك من ألوان الرقابة على السلطة التنفيذية . ومعنى ذلك أن الشعب انتصر ، فأصبح يقرر بوساطة نوابه القوانين التى تصدر وتطبق عليه .

وراحت انجلترا وفرنسا تدبران المؤامرات للوقيعة بين العرابيين من ناحية وبين شريف باشا والخديو من ناحـــية أخرى . ففى ٨ من يناير سنة ١٨٨٢ أرسلت الدولتان مذكرة إلى الخديو تتضمن تأييد الدولتين ، وأن لهما حق الوصاية والرقابة على مصر ، ولهما حق إقرار الأمن والنظام فيها . وقد استهدفت الدولتان من هذه المذكرة التدخل فى شئون مصر ، وكان من الواجب أن يرفض الخديو هذه المذكرة ، ولكنه قابل هذه المذكرة بالشكر والامتنان ، فى حين قابلها الشعب بالاستنكار والازدراء . واعترض شريف على المذكرة . بيد أن الدولتين أمعنتا فى التدخل ، فطالب القنصلان الإنجليزى والفرنسى بألا يكون لمجلس النواب حق تقدير الميزانية . وقد قدمت هذه المذكرة الأخيرة فى أثناء انشغال اللجنة الدستورية بالنظر فى اللائحة الأسياسية وأراد شريف أن يرجىء هذا الأمر بعض الوقت ، وأن يتفادى وقوع الأزمة ، ولكن ذلك لم يرض العرابيين ، وأصبح موقف شريف حرجاً فاستقال وتألفت وزارة محمود سامى البارودى، وكان أحمد عرابى وزيراً للحربية فيها . وأقر مجلس النواب الدستور وصدر به المرسوم فى ٨ فبراير ١٨٨٢ . وراحت الدول الاستعمارية تدبر المؤامرات من جديد للوقيعة بين الخديو الذى انحاز تماما لهذه الدول ، وبين الوطنيين الذين صمموا على المضىّ فى طريق الكفاح من أجل تحرير بلادهم من السيطرة الأجنبية .

ماذا كان موقف (النديم) فى الطائف تجاه هذه المؤامرات والفتن ، وتجاه جذوة الوطنية المتّقدة ؟ . .

كتب (النديم) يدحض افتراءات الصحف التى كانت تهدف إلى توسيع شقة الخلاف بين الخديو والشعب يقول بعنوان (كشف المخبأ) :

« ظنت بعض الجرائد المحلية أن حالتنا الراهنة فرصة تمكننا من

إظهار مقاصدها فتلونت فى عباراتها تلونا لم تهتد فيه إلى طريق الصواب فأخذت توغر الصدور مرة وتظهر اختلاف الكلمة مرة أخرى . وتوهم تعدد الأحزاب ، وتباين مقاصد الحضرة الخديوية والأمة والجند ، وهى فى هذا كله مخطئة لجهلها ما عليه الحضرة الخديوية والأمة والجند من الاتفاق فى المقصد الذى هو حفظ راحة البلاد وأمن العباد ... » .

وكان النديم يؤيد الحزب الوطنى « القديم » ويتحدث عن الحرية والأحرار فى كل مكان مظهراً ألوانا من كفاح الشعوب التى كافحت من أجل حريتها واستقلالها كفرنسا وأمريكا وسويسرا وغيرها فكتب مقالا عن « الحياة الوطنية » وقد بدأ مقاله بوصف الوطنية وأعمال الوطنيين فقال : سر تبعته الخواطر فتحرك به الدماء وتتوجه الهمم إلى أعالى الأمور على مراقى الحرية ، ولا يقوم بهذا السر فى كل أمة إلا رجال العزائم وأهل الإقدام على صعاب الحوادث فيقطعون العقبات بالصبر على المشاق ويصرفون نفيس العمر فى شراء الخالد من الذكر الجميل وما أعمالهم إلا شرارة تعلق بكبريت طباع الأمة فيعلو بها لهيب يشم رائحته القريب ويرى ضوءه ، البعيد ... » .

وهم الآن أرباب السيادة وأصحاب الصوت الأول فى الأمم المتمدينة وقد غلبت أفكارهم أفكار المستبدين فى أمريكا حتى صار لهم الصوت الأول ، وزاحمت أعمالهم أعمال المحافظين فى انجلترا ، فكانت لهم السطوة فى وزارتها ، وغالبوا بأعمالهم قوة الملكيين فى فرنسا فرفعت أعلامهم على دوائر حكومتها ، وجرت مياه أفكارهم فى أرض سويسرا فأنبتت حرية تغذى كل سويسرا بنهرها ، وتقووا بعزائمهم فى جرمانيا ، فجمعوا شملهم المبدد ، وأشعلت نيرانهم فى روسيا ، واهتدى كل تائه فى ظلم الاستبداد ، وفوقوا سهامهم فى النمسا فخشى منها كل مانع لمقاصدهم ، وجروا فى جرن

إيطاليا فتبعهم كل طالب حياة بلاده . . ولقد سرى هذا السر فى الشرق فقابله المصريون قبول المحب لمحبوبه فهو الآن القوة الجاذبة والمعنى المألوف يجتمع حوله كل وطنى حر ، لا قصد له إلا حياة الأوطان ، ويدافعه كل طامع فى ثروة أو دائر حول وجاهة يحصلها أو رفعة يبلغها بغلطة يظهرها أو أكاذيب يلفقها . . . ولكن إقدام الحزب الوطنى لا يزحزحه مثل هؤلاء المتلونين فإنه حزب اعتز بالله وانتصر بالحق وتقوى على قطع العقبات بعزائم تساعدها القوة الإلهية وتؤيدها العناية الربانية فهو حزب الله الساعى فى جمع الكلمة وائتلاف النفوس ينادى فيه لسان الحق الثبات الثبات يارجال الوطن ، إن حزب الله هم الغالبون .

هذا هو موقف النديم من هذه الفتن وهذه المؤامرات التى تدبر للقضاء على حرية مصر واستقلالها وهو موقف وطنى إيجابى يجمع القلوب حول الأحرار المخلصين وينفر من هؤلاء الخونة الطامعين الغادرين .

ولنتابع التاريخ لنعرف ماذا تم بعد انتصار الثورة الشعبية ، دبرت بريطانيا وفرنسا مؤامرة لإسقاط وزارة البارودى ونشر الفوضى وإيجاد سبب للتدخل والاستيلاء على مصر ، وقد تآزر الخديو توفيق مع بريطانيا لكى يضمن بقاءه على عرش مصر ، واتفقت الدولتان على إرسال أسطولهما إلى مصر لتهديد الشعب وقيادة الثورة ، وكان ذلك بالاتفاق مع الخديو ، وأعقب ذلك تقديم مذكرة مشتركة إلى الخديو يطلبان فيها انسحاب أحمد عرابى من مصر مع حفظ حقه فى مرتبه وألقابه وكذلك ، إبعاد على فهمى وعبد العال حلمى إلى ريف مصر مع الاحتفاظ لكل منهما بلقبه ومرتبه ، وإقالة وزارة البارودى .

وغنى عن البيان أن عرابى لم يكن هو المقصود بهذه المؤامرة ، بل كان الشعب هو الهدف الذى ترمى بريطانيا إلى تفتيت وحدته ، لكى يسهل

عليها احتلال مصر ، واستقال البارودى احتجاجاً على هذا التدخل السافر ، وانضمام الخديو إلى الدولتين .

وهنا شرع النديم قلمه وراح يصب جام حنقه على أسرة الألبانى محمد على ، فكتب مقالا فى الطائف يقول فيه : « إن البرنس « حسين » كان يريد أن يضم إلى أرضه خمسمائة فدان من أراضى أهالى صفط الملوك بالوجه البحرى فتظلموا للحكومة فلم تستمع لهم ، وأرسلت فعلا القصابين لمسح الأرض وتعيين الحدود ، وكاد يتم كل شىء فعلا ، لولا وصول لجنة التحقيق العليا فى هذه الأثناء ، وإيقاف الحكومة عند حدها » .

وكتب فى نفس العدد يقول بعنوان : « سلب الأملاك من الملاك » وهو مقال من سلسلة مقالات بعنوان « مصر وإسماعيل باشا » هاجم فيها إسماعيل هجوماً شديداً وأوضح شره إسماعيل وحبه للمال واغتصابه للأرض من الكادح البائس .

قال فى المقال الثالث : « لم يكتف إسماعيل باشا بتغلبه على جميع إيراد القطر وتجريده جميع الأهالى إلا بعض أعوانه من نتائج أعمالهم من بقاء الأراضى مكلفة بأسمائهم ، بل شرهت نفسه وولعت بالاستيلاء على ما يعملون فيه من الأطيان حساً وصورة ، كما استولى عليه معنى وحقيقة ظناً منه أن الاستيلاء المعنوى دائم بدوام الجبار الوحش ، (وهو حضرته) فإذا قضى نحبه فربما لا يوجد من يعمل مثل عمله فيرتاح الناس زمناً ، فأراد أن ينزع الأملاك من أيدى مالكيها حتى لا يتيسر لهم الانتفاع بها فى عهده ولا فى عهد غيره ممن يأتى بعده إلا أن يكونوا خدمة مستعبدين فى أعمالهم الشاقة بأجرة زهيدة وربما لا تكفى لسد رمقهم ويكون معنى الملكية والاختصاص بالظروف فى عدد معين من أخصائه وآل بيته . .

« والمصابون بظلمهم لم ينقطع لهم بكاء ولا نحيب ، فإن احتاج

الأغنياء منهم إلى التفصيل رجعنا إليه على وجه يكشف المخبأ ويظهر الخفى ويفضح كل من تستر بجلد الإنسانية وهو يهيم وتظاهر بالوطنية وهو لها عدو مبين ».

٥

وفى ١١ من يوليو سنة ١٨٨٢ جاءت بريطانيا إلى مصر بالحديد والنار ، فقام الشعب العربى فى مصر بقيادة عرابى يقاتل فى بسالة نادرة وشجاعة فائقة . . وكان عبد الله النديم فى الميدان يكتب فى « الطائف » أخبار انتصارات الجيش العربى التى كانت تتوالى فى مخيلته ، بينما كان الجيش يلقى الهزيمة بسبب خيانة الخديو للشعب . .

وعاد النديم إلى القاهرة تحت جناح الظلام ، وتستر إلى داره بجهة العشماوى وأخذ يعد العُدَّة لفرار طويل الأمد ، وما كاد الليل يذوب فى أنفاس الصباح حتى هجر المنزل مع خادمه وركب إلى بولاق ، ومضى النديم إلى صديق من أهل الحى فمكث عنده أياما مع خادمه ، ثم خرج وقد لبس « زعبوطا » أحمر ، وغطى عينيه بمنديل وأطال لحيته ، وأمسك عكازا طويلا ، وتصنع أنه من مشايخ الطرق ، ونزل فى سفينة مع خادمه إلى بنها ، فلم يفطن إليه أحد .

وجزع حسن خادمه ، وفكر فى العودة إلى أهله ، فخشى « النديم » افتضاح أمره لو سمح للخادم بالرجوع ، فأمسك بالجريدة الرسمية ذات يوم وتصنع الفزع وقال . « لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » فسأله الخادم وكان أميًّا عما أفزعه ، فقال النديم : إن الحكومة رصدت لمن يقبض على ألف جنيه ، أما من يقبض عليك أو يأتيها برأسك فله خمسة آلاف .

وجزع الخادم جزعا شديدا ومنذ تلك اللحظة كان أحرص من النديم

فى الاختفاء وبعد أن أعيا الحكومة أمره أصدرت عليه حكما غيابيا بالنفى المؤبد من مصر ، ويقول عبدالله النديم عن نفسه وفى هذه الفترة : خرجت من مصر مستخفيا فدرت فى البلاد متنكرا ، أدخل كل بلد بلباس مخصوص وأتكلم فى كل قرية بلسان يوافق دعواى التى أدعيها من قولى إنى مغربى أو يمنى أو مدنى أو فيومى أو شرقاوى أو نجدى ، وأصلح لحيتى إصلاحا يوافق الدعوى أيضا فأطيلها فى مكان عند دعوى المشيخة ، وأقصرها فى آخر عند دعوى السياحة مثلا ، وأبيضها فى بلد ، وأحمرها فى قرية ، وأسودها فى عزبة » .

وكان من مهارته فى الاستخفاء أنه رأى جد الحكومة فى طلبه ، فاستعان برجل من الفرنسيين يعرفه ويثق به فأشاع أنه سافر إلى بلدة ليفورنو بإيطاليا وانتشر الخبر فى كل مكان ، ونقلت « جريدة الأهرام » الخبر فى سنة ١٨٨٢ ووجهت لوما عنيفا إلى رجال البوليس الذين تهاونوا فى القبض على النديم وسمحوا له بالفرار من البلاد دون أن تناله يد العدالة . وصدّق الناس ذلك .

ونشرت مجلة « المحروسة » بعد عامين من اختفائه « قد تعددت الأقوال فى مقر عبدالله النديم ، فمن قائل أنه التجأ إلى البلاد الإيطالية ، ومن قائل إنه فر إلى طرابلس الغرب ، ومن زاعم أنه أتى إلى السودان واتصل بالمهدى وصار له نديما ، وقال قوم إنه سارع فى السفر إلى « سيلان » للاجتماع بعرابى ، والحقيقة فيما نعلم أنه أتى باريس فى الأيام الأخيرة ، نشر فيها مقالة أتى فيهـــا على ذكر الحرب العرابية وندد بالمصريين ونسب إليهم الضعف والجبن . . . » .

ونشر الخبر بالصورة التى قدمناها يعطى فكرة عما كان يحتله النديم من مكانة ، وراح النديم يتنقل من بلد إلى بلد حتى ألقى عصا الترحال فى

بلدة العتوة بمديرية الغربية ، ورحب به عمدتها الشيخ محمد الهمشرى ، وظل النديم فى داره مختفيا ثلاث سنوات تزوج فيها كما تزوج خادمه ، فلما توفى دعت زوجته أكبر أولادها وقالت له : هل تطمع فى المكافأة أو تكون كأبيك شهماً تحفظ الجار وتحمى اللاجىء ؟ فوعدها بأن يكون كأبيه فى حفظه ووفى بذلك ، حتى أحس النديم بوشاية واش ، فخرج من عندهم حامدا مروءتهم .

وكان النديم يصادف أحيانا العطف من بعض المسئولين ، قابله يوم مأمور مركز شركس ، وكان النديم متنكرا لا سبيل إلى أن يعرفه أحد ، ومع هذا عرفه المأمور وقال له : لا ضرورة للتنكر فقد عرفتك وأنت النديم وأعطاه مامعـــه من نقود ورسم له خطة السير فى طريقه حتى لا يضبط .

وكان للنديم صديق فرنسى يلتقى به سرا ، طلب منه أن يأتيه بأخبار أهله وكتبه ، وجاءه الصديق بأخبار محزنة ، فقد تفرق أهله فى البلاد وتنكر لهم الناس ، وأما كتبه وتآليفه التى أنفق فيها تسعة عشر عاما ، فإنها عندما خربت الإسكندرية بقنابل الأسطول البريطانى وهاجر منها أهلها وضعها أبوه فى ثلاثة صناديق كبار وشحنت فى إحدى عربات السكك الحديدية فلما وصلت إلى كفر الزيات ازدحم على القطار المسافرين من المهاجرين ازدحاما هائلا فلم ير رجال المحطة مناصا من إلقاء جميع المشحونات فى العربات فى النيل ، ومنها الصناديق الثلاثة وفيها كل ثروته الفكرية .

ومرت بالنديم أيام سوداء كالحة ، كان لا يجد فيها ما يقتات به ، وقد كتب فى هذه الفترة لصديق له يقول : « إن سألت عنى فأنا بخير وعافية . وحالة رائقة صافية ، لا أشغل فكرى بما يأتى به الليل إذا كنت بالنهار ، ولا أتعب ذهنى بتوالى الخطوب والأكدار ، ولا أتألم من طول المدة

ووقع الشدة ، لاعتقادى أن لكل شدة مدة متى انتهت جفت الأوحال ، وحسن الحال ، فترانى وفكرى كليمى ، وقلبى نديمى تارة ، أشتغل بكتابة فصول فى علم الأصول ، وأجمع عقائد أهل السنة بما تعظم بها الله السنة ، وحينا أشتغل بنظم فرائد فى صورة قصائد ، ووقتاً أكتب رسائل مؤتلفة من فنون مختلفة ، وآونة أكتب فى التصوف والسلوك وسير الأخبار والملوك ، وزمناً أكتب فى العادات والأخلاق وجغرافية الآفاق ، ومرة أطواف الأكوان على سفينة تاريخ الزمان ، ويوما أشتغل بشرح أنواع البديع فى مدح الشفيع ، وقد تم لى الآن عشرون مؤلفا بين صغير وكبير ، فانظر إلى آثار رحمة الله اللطيف الخبير ، كيف جعل أيام المحنة وسيلة للمنحة والمنة ، أترانى كنت أكتب هذه العلوم فى ذلك الوقت المعلوم وقد كنت أشغل من مرضعة اثنين وفى حجرها ثالث ، وعلى كتفها رابع ، وأتعب من مربى عشرة وليس له تابع ، أشتغل بعض النهار بتحرير الجورنال ، وأقضى ليلى فى دراسة الأحوال مشتغلا بمجالس الجمعيات الخيرية ومدارسها التعليمية ، وزيارة الإخوان ، ومراقبة أبناء الزمان وقد نسيت الأهل والعيلة ، وربما نسيت الطعام يوما وليلة ، فكنت كآلة يحركها البخار ، لا سكون لها مادام الماء والنار ، فمتى كنت أنظر للمخالفات وأكتب هذه المؤلفات ؟

ولو ان نار مصيبتى فى الغير أصلاه الزفير
لكنها فى ساحـــة من فوقها جو مطير
هو صدق إيمانى وصبـ ـرى للقضاء بلا نكير
ووقوف جيش عزيمتى فى باب مولاى البصير

وتراكضت ليالى البؤس والنديم صابر على المحنة ، وحدثت بينه وبين زوجته فى هذه الفترة مشاحنات كثيرة كاد يفتضح فيها أمره ، بلغ

به الضيق الحد الذى جعله يفكر فى تسليم نفسه تخلصا من زوجته ومشاحناتها ، ولكن الصفاء حل بدل الكدر وطلب له البقاء فى الجميزة التابعة لمركز السنطة ، ولكن رجلا يدعى حسن الفرارجى ، كان يعمل جنديا ثم استخدم جاسوسا عرفه وكتب إلى السراى وإلى الداخلية . فأمرت بالقبض عليه ، وذهب وكيل حكمدار الغربية على رأس قوة كبيرة من الجند تحيط بالبلدة وأراد النديم أن يهرب بحيلة قديمة فلم يتمكن ، فاستسلم . وكان من حسن حظه أنهم لم يتنبهوا إلى أوراقه ، وكان فى بعضها نقد مقذع للخديو توفيق لو اطلعوا عليه لتغير مجرى حياته ، وكان القبض عليه فى صفر سنة ١٣٠٩ ﻫ واستخفاؤه فى ذى القعدة سنة ١٢٩٩ ﻫ وأرسل النديم إلى طنطا للتحقيق معه . وكان وكيل النيابة يومئذ قاسم أمين فأحسن معاملته ، وكان التحقيق يستهدف معرفة من آواه ، وهل كانوا يعرفونه أم لا ؟ بيد أنه أنكر فى عزم وإصرار أن يكون أحد ممن آواه يعرف حقيقته . ثم صدر أمر الخديو توفيق بالعفو عنه وإبعاده عن مصر إلى أى بلد يشاء ، فاختار يافا ونزل بها ، فأكرمه أهلها ، واتخذ بها دارا جعلها ندوة للأدباء والعلماء ، وطاف بفلسطين يشاهد آثارها . ومات توفيق وتولى عباس ، فعفا عنه وسمح له بالعودة إلى مصر سنة ١٨٩٢ فعاد وأنشأ مجلة « الأستاذ » .

٦

كان « عباس » قد تعلم فى فينا ، وعاد إلى مصر ليتولى العرش . وقد أحبه الشعب وأمل فيه الخير للبلاد ، استجاب له الخديو الجديد ، وبدأ يعطف على مطالب الشعب ويتقرب إليه . وأدركت بريطانيا أن ذلك التقرب

بين الخديو الشاب وبين الشعب سيكون وبالا عليها فبدأ الجفاء بين عباس واللورد كرومر وعرف ذلك الشعب .

وعندئذ بدأت التيارات المختلفة تظهر ، وبدأت توضع بذور الأحزاب المختلفة ، وبدأت اتجاهات الصحف المختلفة تبدو فيما تكتب وتنشر من آراء ، هذه تؤيد الحركة الوطنية وتوازر الخديو عباس ، وتلك تؤيد السياسة البريطانية إما رغبة أو رهبة ، فى هذا الجو الملبد بالغيوم جاء النديم إلى مصر فأخذ يدرس ما فاته من شئون مصر فى أثناء غيابه ، ثم حدد هدفه ، وأنشأ مجلة الأستاذ « جريدة علمية تهذيبية فكاهية » تصدر يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، وظهر العدد الأول منها فى أول صفر سنة ١٣١٠ هـ ٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٢ يتولى هو تحريرها ، ويتولى إدارتها أخوه عبد الفتاح النديم الأدريسى .

قد اهتمت « مجلة الأستاذ » بنقد العيوب الاجتماعية فى المجتمع المصرى وكانت تحرر باللغة العربية الفصحى فى المقالات السياسية الإصلاحية وباللغة العامية فى الموضوعات الاجتماعية .

وقد فوجىء النديم أثر عودته إلى مصر بموجة من الانحلال الخلقى فى البلاد ، فالخمر قد انتشرت انتشار ذريعا والنساء يخرجن متبرجات ، وقلد المصرى الأوربى تقليـــدا أعمى ، والتشدق باستخدامه كلمات أجنبية فى أثنا حديثه بالعربية . وشرع النديم قلمه ، وراح ينقد كل ذلك فى أسلوب قوى رائع واتهم الأوربيين بالعمل على ذيوع الرذيلة حتى يسقط الشرق ، وتنحل أخلاقه ، كما نقد النديم نظم التعليم وخلوها من نشر الوعى القومى ، ودعا أبناء البلاد إلى إنشاء الجمعيات الخيرية لكى تسد هذا النقص .

وفى ذلك الوقت تلبدت السماء السياسية بالغيوم ، إذ كان الخديو عباس يستهدف النهوض بالبلاد ، فأخذ النديم يدعو الشعب إلى شد أزر الخديو والوقوف إلى جانبه ضد الأجنبى الغاصب ، فكتب فى مجلة « الأستاذ » بتاريخ ٧ يناير سنة ١٨٩٣ مقالا بعنوان « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » تعرض فيه لحال الشرق وما أصابه ويندد بالغربيين فى أساليبهم وبالشرقيين فى غفلتهم ، ويشرح ما تفعله الحكومات الغربية لترقية شعوبها ، وما تنشره فى أمم الشرق لانحلالها وما يفعله المصريون فى تواكلهم . ويدعو إلى الالتفاف حول الخديو واتحاد العرب ووقوفهم صفاً واحدا ليدافعوا عن حريتهم وكرامتهم ، ويختم المقال بقوله :

« . . . وبالجملة فقد بلغ السيل الزبى ، فإن رفونا هذا الخرق وشد بعضنا أزر بعض ، وجمعنا الكلمة الشرقية مصرية وشامية وعربية وتركية أمكننا أن نقول لأوربا إنا نحن نحن وأنتم أنتم ، وإن بقينا على هذا الشقاق والتخاذل واللياذ بالأجنبى فريقا بعد فريق حق لأوربا أن تطردنا من بلادنا وتصدق فى قولها « لو كنتم مثلنا لفعلتم مثلنا » .

ويظل النديم يضرب على هذه النغمة كذلك فى الأعداد التالية ، وكانت هذه النغمة صدًى لما يحدث من أزمات . ففى ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ أقال الخديو مصطفى فهمى منتهزا فرصة مرضه ، وعهد إلى حسين فخرى فى تشكيل الوزارة . فعارض كرومر فى أن تعين الوزارة دون استشارته ، واشتد الأخذ والرد وأنذرت انجلترا الخديو ، وانتهت المشكلة باستقالة حسين فخرى وتعيين رياض باشا كما أراد كرومر ، وانتشر الخبر فى الشعب . فثار على هذه السياسة البريطانية الصفقة ، وغلت مراجل حقده على المستعمر ، ويذكى النديم النار ، وتلتهب مقالاته ، وتقد انجلترا نقداً شديداً ، وأخذ يوجه إليهم اللوم ويحملهم أسباب تأخر الهند التى

احتلوها من قبل ، ومصر التى احتلوها اليوم . فتألبت عليه الصحف الضالعة مع الاستعمار وحذرت منه ، وقالت إنه يعد البلاد لفتنة بين المسلمين وغيرهم ، وما تزال الحملة الظالمة تشتد حتى يطلب كرومر من الخديو عباس نفى النديم منعاً للفتنة . فيطيع ولا يستطيع أن يحمى الكاتب الذى شد أزره ، ووقف إلى جانبه ، وودع النديم قراءه فى آخر عدد صدر من « الأستاذ » فى ١٣ يونيو ١٨٩٣ ، وقال فى آخر وداعه « وما خُلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ، والعاقل يتلذذ بما يراه فى فصول تاريخه من العظم والجلال ، وعلى هذا فانى أودع إخوانى قائلا :

أودعكم والله يعلم أننى أحب لقاكم والخلود إليكم

وما عن قِلىً كان الرحيل وإنما دواع تعددت فالسلام عليكم

* * *

سافر النديم إلى يافا ، حيث كان قبل العفو عنه ، ورتبت له الحكومة المصرية خمسة وعشرين جنيها شهريا يعيش بها على شريطة ألا يكتب عن مصر شيئا ، وما لبث أربعة أشهر حتى وشى به الوشاة بأنه يطعن فى سياسة الدولة العلية ، فصدر أمر السلطان بإبعاده ويعود إلى الاسكندرية حائرا لايدرى أين يتجه ، ويقيم بضعة أيام لدى الغازى مختار باشا المندوب السلطانى العالى يشكو إليه أمره ، فساعده مختار باشا وأرسله إلى الآستانة بتوصية ، وعين النديم هناك مفتشاً للمطبوعات بمرتب قدره خمسة وأربعون جنيها مجيديا بالإضافة إلى مرتبه من الحكومة المصرية — ينفق كل ذلك على نفسه وإخوانه ومن يبره من أهله وأقاربه ، وجد النديم نفسه فى قفص من ذهب ، فهو رقيب المطبوعات ، وكان حر القلم لايؤمن بالرقابة وهو بعيد عن الناس لايكتب ولا يخطب . ولكن هل للقلم الثائر أن يغمد ،

واللسان الذرب أن يصمت ؟ إنه لم يعرف للهدوء طعماً في جميع مراحل حياته ، لقد وقع في خصومة مع أبي الهدى الصيادى ، وكان سوريا تقرب إلى السلطان عبد الحميد واستأثر بالحظوة لديه وأصبحت له الكلمة المسموعة في البلاد ، وهو عدو كل إصلاح . والنديم لا يخشى بأس الرجل فوضع فيه كتابا سماه «المسامير» لم ينشر في حياته ، استعمل فيه أسلوبا وضيعا وهجا فيه خصمه هجاءً مقذعا ، وبلغ أبا الهدى أمر الكتاب فأبلغ السلطان عبد الحميد أن فيه أيضا هجاء له ، فبحث عنه طويلا ولكن دون جدوى ، واستطاع «جورج كرتش» الذى كان متصلا بالنديم أن يحتفظ به ويخفيه ويفر به إلى مصر ثم يطبعه .

ولم يعمر النديم بالآستانة طويلا فقد استشرى في جسمه (داء السل) ولم يطل مرضه ، فمات في العاشر من أكتوبر سنة ١٨٩٦ ، واحتفل بمشهده احتفالا كبيرا سار فيه علية القوم وعلى رأسهم جمال الدين الأفغاني ، ودفن في مقبرة يحيى افندى باشكطاش بعيدا عن الأهل والوطن ، ودفن منه الجسد ولكن روحه ستظل أبدا ترفرف فوق أرض مصر تمجد الأحرار المناضلين عن حقهم في الحرية والكرامة .

٧

ومن مؤلفات النديم الكثيرة ، وديوان شعر يشتمل على نحو أربعة آلاف بيت نظمها في مطلع شبابه . وديوان آخر في نحو ثلاثة آلاف بيت . وروايتا (الوطن) و (طالع التوفيق) و (العرب) وله رسائل أدبية مسجوعة « وكان ويكون » وهو كتاب نشر بعض فصوله في « الاستاذ » وواحد وعشرون كتابا في فنون مختلفة منها ديوان شعر يضم ما يقرب من عشرة آلاف بيت وهو الآن محجوز عليه في الآستانة مع تلك الكتب

ومنها الشرك في المشترك . وكتاب في المترادفات . وآخر في اللغة سماه موحد الفصول وجامع الأصول والفوائد في العقائد ، واللآلىء والدرر في فواتح السور ، والبديع في مدح الشفيع وأمثال العرب وغير ذلك .

وقد فقد كثير من مؤلفات النديم ومنظوماته حرقا أوضياعاً على أن شقيقه عبد الفتاح النديم وصديقه محمود واصف قد عنيا بجمع ما تيسر من ذلك في كتاب سمياه « سلافة النديم في منتخبات السيد عبدالله النديم » وطبعاه .

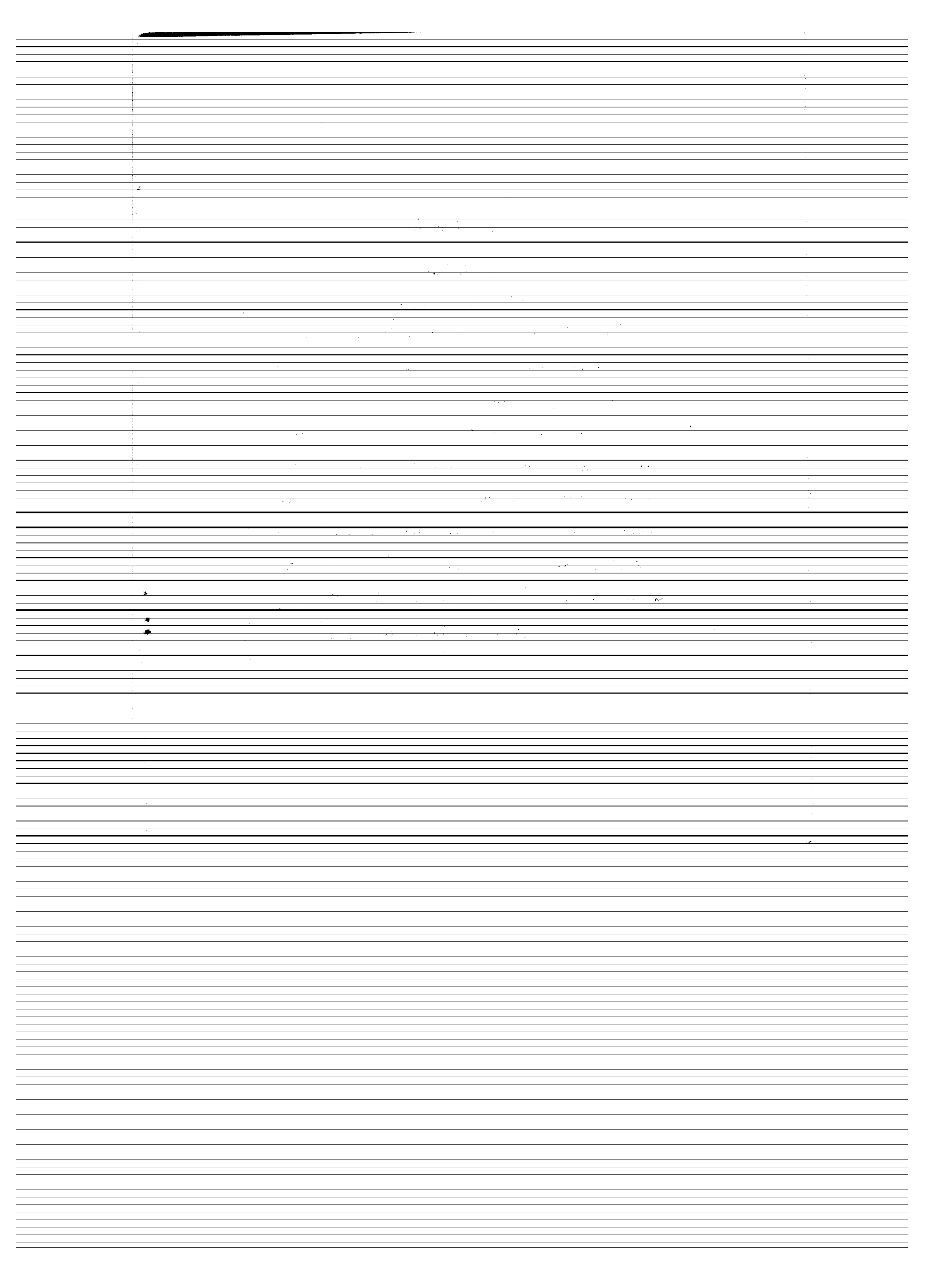
———

هيئة قناة السويس

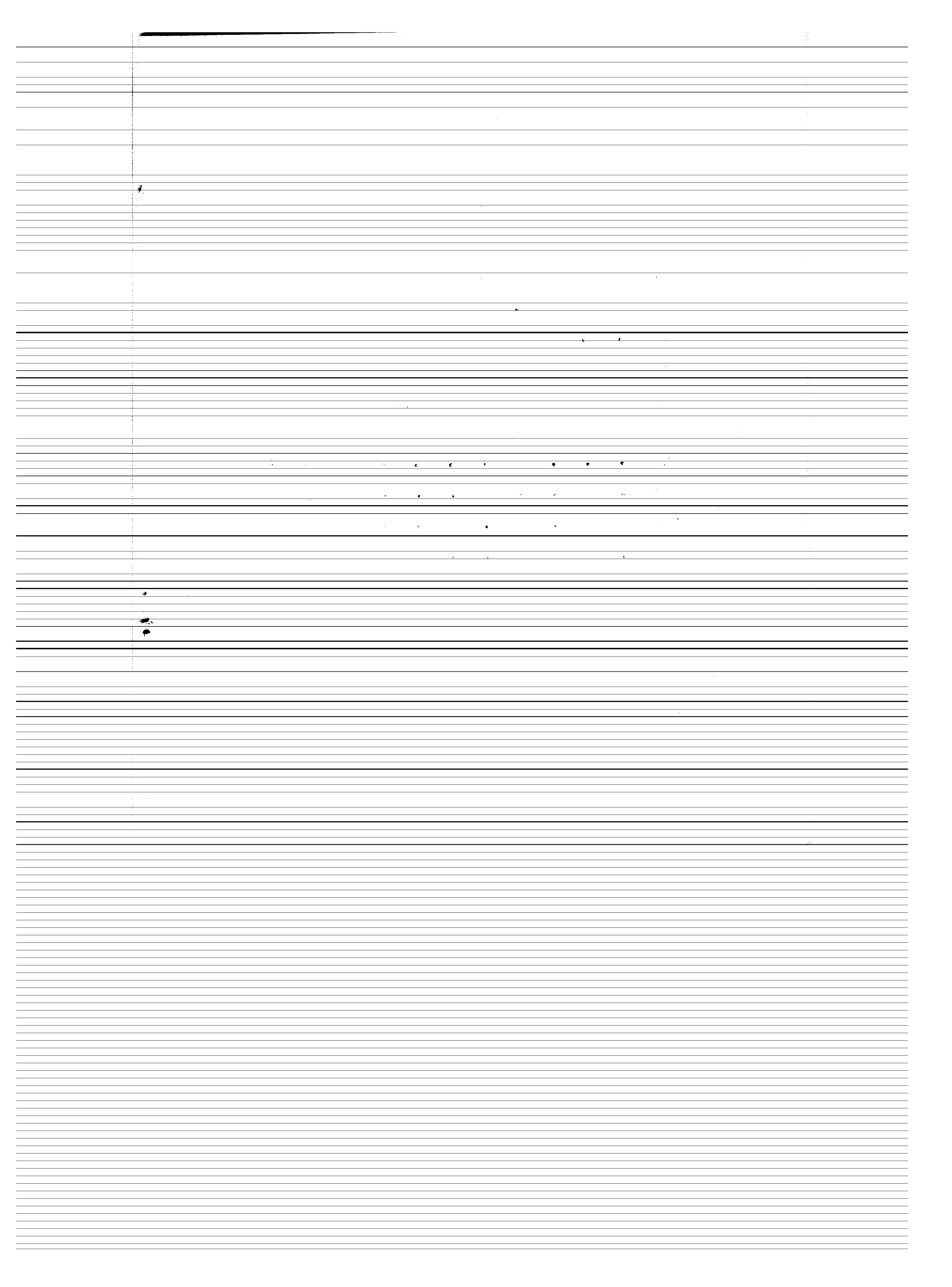
مناقصة عامة

بين مقاولى القطاع العام

تطرح هيئة قناة السويس فى مناقصة عامة عملية إنشاء مبانى ثمانى عمارات سكنية لعمالها بالإسماعيلية مقسمة إلى مجموعتين كل مجموعة أربع عمارات كمناقصة منفصلة . . ويمكن الحصول على مستندات كل مجموعة بالحضور شخصيا إلى مقر الهيئة بالإسماعيلية (الإدارة الهندسية) وذلك نظير مبلغ عشرين جنيها . . وتقدم العطاءات باسم السيد / رئيس هيئة قناة السويس (الإدارة الهندسية) فى ميعاد أقصاه الساعة الثانية عشرة ظهر يوم الأربعاء ١٤ أغسطس ١٩٦٣ مصحوبة بتأمين ابتدائى قدره ألف جنيه عن كل مجموعة يرغب المقاول التقدم فيها ولن يتلفت إلى أى عطاء يقدم بعد هذا الموعد أو غير مصحوب بالتأمين الابتدائى .



فهرس





طبع بمطابع
الدار القومية للطبع والنشر

